الفصل الثالث والخمسون

حقوق الملوك وحقوق سادات القبائل

وبعد أن تكلمت على أصول الحكم عند الجاهليين وعلى الأشخاص الذين كانوا يتولون إدارة الحكم وتصريفها ، وجب أن أتكلم على حقوق الملوك وحقوق سادات القبائل على أتباعهم، أي الواجبات التي يجب أن يؤديها الأتباع إلى سادتهم وحكامهم من طاعة ومن مال ، فأقول :

حقوق الملوك :

والملك هو السلطة العليا في المملكة وهو الموجه والمدير المدبر لأمورها . وله على أتباعه حقوق ، منها : حق التسليم والخضوع والطاعة . فطاعة الملك طاعة واجبة. وله حق جباية الشعب ، أي أخذ الضرائب منه : ضرائب على الزراعة، وضرائب على التجارة ، وحق إعلان النفير والحرب ، والامتناع عن دفع حقوق الملوك المتفق عليها ، والخروج على أمره هو خروج على الحق والقانون .

هذا واننا نأسف إذ نقول اننا لا نملك كتابات جاهلية تتحدث عن حقوق الملوك وعن الواجبات التي على الشعب القيام بها تجاههم ، فما نتحدث به عن هذا الموضوع مستمد من بعض الأوامر والإرادات التي أصدرها ملوك من العربية الجنوبية ، في تنظيم الأعمال وفي كيفية التجارة والاتجار أو في الضرائب التي على

التاجر أو المزارع أداؤها للملوك ، وبعض آخر أخـذ من كتب أهل الأخبـار والتواريخ وكتب الشعر والنثر ، وفيها نتف وردت عرضاً عن بعض حقوق الملوك وسادات القبائل في الجاهلية الملاصقة للاسلام .

والملك هو قائد شعبه ايام السلم وايام الحرب ، يرأس جيشه في القتال ويختار من يشاء لقيادة الجيش . وهو القاضي الأعلى والحاكم فيما يقع بينهم من خلاف . وهو الرئيس الروحي لأمته وكاهنها في الأصل . غير ان الملوك تركوا هذه القيادة الروحية ، أي الزعامة الدينية لغيرهم ، وهم رؤساء الدين ، واحتفظوا بالسلطة الزمنية التي تشمل سلطة القيادة والحكم .

بيت المال :

والملك هو صاحب أرض الدولة والقيّم عليها. وله حق منح الأرض لمن يشاء وانتزاعها عمن يشاء ، أو تأجيرها لمن يرى . والأرض عند العرب الجنوبيين هي ملك الآلهة ، وليس على وجـه الأرض ملك لإنسان . غير أن هذا لا يعني ان الأرض ومن عليها ملك لرجال الدين باعتبار انهم ألسنة الآلهة الناطقة عـلى هذه الأرض والممثلون لهم في هذا العالم ، فهم وحدهم إذن لهم حـق ادارة الأرض واستغلالها ، وذلك لأن الملوك سلبوهم هـذا الحق واستبدوا به ومارسوه ونصبوا أنفسهم خلفاء على الأرض ، وصاروا أوصياء الآلهة على أموالها . وهكذا فسرت قاعدة (المال مال الآلهة) تفسيراً يجـعل حق الأشراف على (مال الآلهة) في هذه الأرض للملوك ولأصحاب السلطان الفعلي الحاكمين حكماً بقانون القوة ، أما رجال الدين الذين يجب أن يكونوا هم خلفاء الآلهة على الأرض والمنفذين لأوامرها، فقد خضعوا لحكم الواقع ، ورضوا بما حصلوا عليه من حقوق وامتيازات، وصاروا الى جانب الملوك في الغالب ، لتشابه المصلحتين ، وحصل التراضي على اعطائهم حقوقاً وامتيازات واسعة ، واستقلالاً في إدارة اموال المعـابد ، بحيث لا يكون للحكومة اي سلطان عليها ، وهي مستثناة من دفع الضرائب التي يجب على سائر الناس دفعها الى الحكومة ، فصار المعبد من ثم سلطة ذات ثراء وسلطان تلي سلطة الحكومة ولها ضرائب يدفعها المؤمنون المتقون [1] .

---

١ Grohmann, Arabien, S. 125.

والملوك هم من كبار أصحاب الملك في الدولة ، فإلى جانب حقهم المتقدم في اعتبارهم خلفاء الآلهة على الأرض في ادارة ملكها ، نجدهم يمتلكون أرضين واسعة وأملاكاً شاسعة ويتاجرون باسمهم ،فيرسلون القوافل للتجارة . والأرض التي يمتلكها الملوك ، هي أرضون خاضعة لهم مباشرة ، لأنها ملكهم الخاص . ومعنى ذلك ان منفعتها تكون خاصة بهم . فلا يصرف منها على المصلحة العامة ، إلا إذا أراد الملك ان يتبرع بذلك رضاءً ، وله بالطبع أن يهدي منها ما يشاء الى من يشاء ، كما يفعل أي مالك ، وهو يؤجر ارضه لمن يريد . ويقال لما يدفع له في مقابل ذلك (نحلث)[1] .

والأرضون المفتوحة عنوة هي من حق الدولة ، تضاف إلى أملاكها وتسجل باسمها ، وتعدّ من (بيت المال) ، ويكون حق النظر في أمرها والإشراف عليها واستغلالها للملك ، لأنه رئيس الدولة وحاكمها ، وله الخيار في كيفية التصرف بها . له أن يعطيها للأقيال في مقابل ضريبة حربية يقدّمونها له تسمى (ساولت) أو في مقابل ايجار يتفق عليه يقال له (ثوبت) ، وله أيضاً أن يبيعها متى شاء، ويعبّر عن ذلك بـ (شامت) أي بيع[2] .

ويراد بضريبة (ساولت) أي الضريبة الحربية ، تعهد أصحاب الأرض بتقديم المحاربين إلى الدولة ، ويتفق على العدد وعلى وقت التقديم ، ويسجل ذلك في عقد الاتفاق . ويقوم أصحاب العقد بالانفاق عليهم وبتقديم كل ما يحتاج المحارب اليه من عدة وسلاح . والغالب ان يقوم بذلك المحارب نفسه ، لأنه رجل مسخر مأمور ، فهو من أتباع صاحب الأرض ، ينتزعه سيده من أرضه ، ويرسله إلى الخدمة وقت الحاجة اليه .

ولما فتح (كرب ايل وتر) ملك سبأ أرض أوسان ودهس،وفتح عنوة كل أرض (عبدان) ومدنها وقراها وأوديتها وحصونها ومراعيها ، صارت كل هذه الأرضين وما عليها من محاربين ومن مدنيين أحرار وعبيد ملكاً لدولة سبأ وسجلت في جملة مقتنياتها . ويلاحظ ان سلطنة العوالق العليا عدت (وادي عبدان) الذي هو في جنوب (نصاب) من (أرض الدولة) أي من أملاك السلطان ومن

---

١ Oslander 35, Arablen, S. 126.

٢ Arablen, S. 126.

أرض (ربيت المال) ورقبتها بيد (سلطان العوالق)[1] .

وبالاضافة إلى الأرضين المفتوحة عنوة، ضم ملوك سبأ إلى أملاك الدولة أرضين اشتروها شراءً ، واشتروا كل ما كان عليها من ناس وحيوان وزرع . فقد كان المشتغلون بالأرض يعدون تابعين لها فيباعون معها وهم ملك لها . وهم طبقة خاصة من طبقات عبيد الأرض .

ولم تتحدث الكتابات عن حقوق الملك وعن مدى صلاحياته في الحكم ، ولكننا نستطيع ان نقول قولاً عاماً إن سلطات الملك كانت كسلطات الملوك الآخرين في الأقطار الأخرى ، تتوقف على شخصية الملك وسلطانه وقدرته ، فهو ملك ذو سلطان واسع مطلق ، أوامره قوانين ، وارادته مطاعة ، يحد سلطان المتنفذين ويخضعهم لحكمه إن كان الملك صاحب شخصية قوية وعزم ، وهو مغلوب على أمره يحكم اسماً إن كان ضعيفاً خائر العزم ، وتحكم المملكة العناصر القوية صاحبة السلطان من ابناء الأسرة المالكة ، او من سادات القبائل او رجال الدين ، فعلى هذه الأحوال إذن كانت تتوقف سلطات الملك وأعماله في المملكة .

وللملوك حق يسمى (حق الإحماء) . فإذا اعجب الملك بأرض أو بعشب ، أعلن حمايته لتلك الأرض ، او لذلك العشب ، فلا يسمح عندئذ لأحد بدخول (الحمى) اي المكان المحمي دون اذن الملك أو الشخص المخول من الملك بهذا الحق . ويدخل في هذا الحق حق حماية الحيوان او النبات . وكان ملوك الحيرة يحمون الأرضين والحيوانات، كالإبل والخيل والكباش ، فتكون لهم ، لا يسمحون لغيرهم بالانتفاع منها . ولما وثب (علباء بن أرقم اليشكري) على كبش للنعمان ابن المنذر ، كان من أحماه ، أي جعله حمى ، فذبحه ، حمل الى النعمان ، فاعتذر اليه وعفا عنه[2] .

وكان (النعمان بن المنذر) يحمي مواضع عديدة قرب الحيرة وعلى مبعدة منها . ترعى فيها إبله ونعائمه ، منها أرض (سحيل) . أرض بين الكوفة والشأم[3] .

---

١ Beiträge, S. 56.

٢ معجم الشعراء (٣٠٤) .

٣ تاج العروس (٣٧٣/٧) ، (سحل) .

أموال الدولة :

ذكرت ان الأرض هي ملك الآلهة في نظر العرب الجنوبيين ، وان (المكربين) والملوك هم خلفاء الآلهـــة على الأرض ، وهم المسؤولون عن الأرض وعن الملك وعن تطبيق أوامر الآلهة ونواهيها بين الناس . وهم حماة الملكية . وكـــل أرض الدولة هي ملك الحاكم من حيث المبدأ،والحاكم هو الذي يقر الملكية ويثبتها لأتباعه ويحافظ عليها [1] .

والملكية بصورة عامة ، إما أن تكون ملكية الدولة ، وإما أن تكون ملكيـة الملك أو الحكام ، أي أملاكهم الخاصة بهم المسجلة باسمهم ، وإما ان تكون من أملاك المعابد ، من أوقاف وغيرها وإما أن تكون من ملكية أشخاص وهـــي : أملاك ثابتة ، أي غير منقولة ، مثل أرض وبئر وحدائق وبساتين، وأموال منقولة مثل : بهائم وأثاث وغير ذلك مما يمكن نقله من مكان إلى مكان .

وأعني بأرض الدولة ، أرض الفتوح . وهي كل أرض تفتتح عنوة ، فتعد مالاً من أموال الدولة ، وتسجل باسم الدولة ، كأن تسجل باسم شعب معين أو شعب سبأ ، وتقيد عند تسجيلها باسم آلهة ذلك الشعب ، باعتبار انها هي المالك الحقيقي الشرعي . وتقوم الحكومة بإدارتها وبالاشراف عليها وباستغلالها واستثمارها إما مباشرة ، أي بتعيين موظفين لإدارتها ، وإما بإعطائها اقطاعـــاً أو كراءً إلى غير ذلك من طرق الاستثمار . ويسجل وارد هذه الأملاك باسم الدولة ويدخل في خزانتها ، وينفق منه على المشاريع العامة ، وفي ضمنها رواتب الموظفين وأجور المشتغلين في إدارة هذه الأملاك .

ويمكن تسمية أرض الدولة بأرض السلطان أو أرض (ميرى) او (أرض سَنِيّة) في المصطلح الحديث .

ومن أملاك الدولة : الصوافي . وهي الأرضين التي استولى عليها وكانت تابعة لحكومة سابقة . فتكون حقاً من حقوق الدولة المنتصرة وغنيمة لها . وتدخل فيها الأملاك والأرض التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها . فقد كان الملوك يستصفون الأرضين التي يستولون عليهـا بالقوة ويجعلونها ملكاً لهم . وهـــي غير

---

١ معجم الشعراء (ص ٣٠٤) .

(الصفايا) ، أي ما يختـــاره الرئيس من المغنم ويصطفيه لنفسه قبل القسمة من فرس او سيف او غيره[1] .

والصوافي في الاسلام: الأملاك والأرض التي جلا عنها أهلها او ماتوا ولا وارث لها . والضياع التي يستخلصها السلطان لخاصته . وكانت (صفية) بنت (حيي) من الصفايا ، اصطفاها الرسول لنفسه من غنيمة (خيبر)[2] .

أموال الملوك :

وإلى جانب أموال الدولة ، توجد اموال الملوك . وهي اموالهم الخـــاصة بهم والمسجلة بأسمائهم لأنها ملك لهم . يتصرفون بها تصرفاً مباشراً ، او يؤجرونهـــا لأتباعهم في مقابل أجر يقال له (نحلت) . والعادة ان الذي يستأجرها هم كبار الناس وسادات المجتمع يأخذونها منهم بشروط سهلة ، ثم يؤجرونها لمن هم دونهم بشروط صعبة ، للاستفادة من الفرق بين سعري الإيجارين . وقد يؤجرها الملوك الى قبيلة ، وتكون القبيلة مسؤولة كلها امامه عن الأرض . فيذكر في العقد اسم القبيلة المستأجرة باعتبار أنها هي التي أجرت ذلك الملك . إلا أن الغـالب هو أن سادات القبائل ، هم الذين يتصرفون بالأرض المستأجرة ، فيؤجرونها الى اتباعهم بشروط ثقيلة . ليربحوا من الفرق . ويكونون هم المسؤولين عن تقديم الـ (نحلت) أي بدل الإيجار الى الملوك[3] .

ويحدث في كثـــير من الأوقات ان كبار الاقطاعيين وكبار سادات القبائل ، يستأثرون بأملاك الدولة وبأملاك الملوك ، ويتصرفون بها تصرفاً اعتباطياً،ولا تتمكن الحكومة من عمل شيء تجاههم لأنهم أقوياء ، لذلك تضطر الدولة الى مـداراتهم ومسايستهم ، بأن تأخذ منهم (نحلت) (نحلة) ، أي أجراً رمزياً ، يكـون بمثابة اعتراف منهم بأن الأرض التي استأثروا بها هي ملك للدولة وللملوك.ويقومون هم باستغلالها وبالتصرف بها كيف يشاؤون . ولا يزال هـذا الوضع معروفاً حتى

---

١ اللسان (١٤/٤٦٢) ، (صفا) .
٢ اللسان (١٤/٤٦٣) ، (صفا) .
٣ Oslander 35, SD 15, Arablen, S. 126.

اليوم ، فقد كان سادات القبائل قد وضعوا أيديهم على أرضين (حكومية) اي (ميري) ، وتصرفوا بها وكأنها ارض تملك (طابو) في مقـابل اجر رمزي زهيد ، ومنهم من استولى عليها وسجلها باسمه ، فصارت ملكاً صرفاً له . بعد بذله مبلغاً زهيداً اعتبر ثمناً لتلك الأرض .

الأوقاف :

وقد كانت للمعابد اوقاف حبست عليها ، ولها موظفون لجباية غلتها ، وهي أوقاف قديمة سجلت باسم المعابد منذ كان الكهان (المكربون) يتولون أمور الحكم. وأوقاف كان يحبسها الأغنياء الأتقياء في حياتهم او بعد وفاتهم على المعابد ، قربةً الى الآلهة . وهي معفوة من الضرائب ، فلا تدفع للحكومة اي ضريبة . لأنهـا أملاك المعبد . ويدفع المستغلون للأوقاف حق التصرف بالاوقاف الى المعبد ، لأنه هو المالك الشرعي للوقف . كما سأتحدث عن ذلك بالقسم الخاص بالمعبد .

وكان أهل الجاهلية يحبسون السوائب والبحائر والحوامي وما أشبهها ، فلا يعتدي عليها ولا يستغلها احد . فلما جاء الإسلام ، نزل القرآن بإحلال ما كانوا يحرمون منها وإطلاق ما حبسوا . وعرف ذلك بـ (الحبس)[1] . وكانوا في الجاهليـة يحبسون مال الميت ونسائه . كانوا إذا كرهوا النساء لقبح أو قلة مـال حبسوهن عن الأزواج لأن أولياء الميت كانوا اولى بهن عندهم . « وفي حديث ابن عباس: لما نزلت آية الفرائض قال النبي ، صلى الله عليه وسلم : لا حبس بعـد سورة النساء ، أي لا يوقف مال ولا يزوى عن وارثه » ، إشارة إلى ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من حبس مال الميت ونسائه[2] .

وكانوا يحبسون الأرض والنخل والكروم وغير ذلك على أصنامهم ، ويجعـل بعضهم غلتها على ابناء السبيل . وذكر ان (الحبس) يقع على كل شيء وقفه صاحبه وقفاً محرماً لا يورث ولا يباع من ارض ونخل وكرم ومُستغل .

---

١ جمع حبيس

٢ اللسان (٦/٤٥) ، (حبس) .

سمات الملك :

وكانوا يَسِمون إبل الملوك وماشيتهم بسمة خاصة ، لتكون علامة على انها من ملك الملوك والدولة . كما كان الأشخاص يَسِمون إبلهم وماشيتهم بسمات خاصة بهم ، لتكون دلالة على تبعيتها لصاحب (الميسم) . والوسم أثر الكي . والميسم : هو الحديدة التي يكوى بها ، واسم للآلة التي يوسم بها . والأصل في الوسم أن يكون بكي ، ثم أطلقوه على كل علامة ، مثل قطع في أذن أو قرمة تكون علامة ، أو ضروب الصور . وكان الرسول يسم إبل الصدقة بميسم ، أي يعلم عليها بالكي[1] .

ووضعوا الريش علامة وسمة لجماهم ، ليعرف من يراها انها من إبل الملوك ، فلا يقترب منها[2] . وكانوا إذا أرادوا تشريف أحد ، حملوه على هذه الإبل أو أهدوه منها . (ومن المجاز : أعطاه، اي النعمان النابغة مائة من عصافيره بريشها، اي بلباسها وأحلاسها . وذلك لأن الرحال لها كالريش ، او لأن الملوك كانت إذا حبت حباءً جعلوا من أسنمة الإبل ريشاً ، وقيل ريش النعامة ، ليعرف انه من حباء الملك)[3] . وذكر ان الملوك كانوا يضعون الريش في أسنمة الإبل وتغرز فيها ، وكانت تجعل الريش علامة لحباء الملك ؛ تحميها بذلك وتشرف صاحبها[4] .

وقد عرفت إبل الملك (النعمان بن المنذر) بأصالتها وبجودة جنسها وبنجابتها . وذكر ان أكرم فحل كان للعرب من الإبل كان يسمى عصفوراً، وتسمى أولاده عصافير النعمان . وكان إذا وهب منها لأحد عدّ ذلك تقديراً وتعظيماً له . حتى كانوا يقولون : (حباه بكذا وكذا من عصافيره) ، و (وهب له مائة من عصافيره) . وذكر ان من فحول إبل (النعمان) الأخرى (داعر) و (شاغر) و (ذو الكِيلين)[5] .

ولأهمية السمات في ذلك الوقت ، وضعوا لها أسماء ، ذكرت في كتب اللغة

---

١ تاج العروس (٩٢/٩ وما بعدها) ، (وسم) .
٢ حياة الحيوان ، للدميري (١٧٣/٢) ، الحيوان ، للجاحظ (٤١٧/٣) .
٣ تاج العروس (٣١٦/٤) ، (الريش) .
٤ الحيوان (٤١٧/٣ وما بعدها) .
٥ الحيوان (٢٣٣/٥) ، (ولذلك قالوا في الحديث : فرجع النابغة من عند النعمان ، وقد وهب له مائة من عصافيره بريشها) ، الحيوان (٤١٨/٣) .

والأخبار . منها : السطاع ، والرقمة ، والخباط ، والكشاح ، والعلاط ، وقيد الفرس ، والشعب ، والمشيطفة ، والمعفاة ، والقرمة ، والجرفة ، والخطاف ، والدلو ، والمشط ، والفرتاج ، والثؤثور ، والدماغ ، والصداع ، واللجام ، والهلال ، والخراش ، والعراض ، واللحاظ ، والتلحيظ ، والتحيين ، والصقاع ، والدمع[1] .

اتجار الملوك وسادات القبائل :

ولم تكن الموارد المذكورة لتسدّ حاجة الملوك ، وسادات القبائل ، لذلك عمدوا الى موارد أخرى لاستنباط المال منها ، فعمدوا الى التجارة وتربية الأنعام وإلى إقامة بعض المصانع وتنمية أرض التاج وزراعتها لبيع حاصلها وساهموا في البيع والشراء في الأسواق ، فكان لهم وكلاء ينقلون أموال الملوك إلى الأسواق لبيعها فيها ، ولشراء ما يحتاج اليه الملك من تجارة أخرى يستطيع تصريفها في أسواق أخرى ، تكون هذه البضائع عزيزة ثمينة فيها ، ولم يكن الاتجار بالأسواق أمراً خاصاً بالملوك العرب ، وإنما كان ذلك عرفاً متبعاً عند غيرهم من الملوك ، مثل الأكاسرة والقياصرة وملوك العبرانيين .

فمن ذلك ما روي من أنه كان للنعمان بن المنذر وغيره لطائم ، عير تحمل الطيب والمسك وبز التجارة ، تذهب الى الأسواق لبيعها فيها ، ولتأتي بتجارة جديدة . وقد ذكر أن (اللطيمة) وعاء الطيب أو سوقه ، وقيل كل سوق يجلب اليها غير ما يؤكل من حر الطيب والمتاع غير الميرة : لطيمة . والميرة لما يؤكل. واللطائم هي الأسواق التي تباع فيها العطريات . وفي جملة ما يباع فيها (بالات) المسك ، أي أوعية المسك[2] .

ويظهر من نصوص المسند أن الملوك كانوا قد أسسوا دوراً للنسيج ، يباع ما تنتجه في الأسواق . وقد اشتهرت اليمن بأنسجتها المختلفة المتعددة . فكانت دور النسيج من جملة الموارد التي تأتي بالمال الى أولئك الملوك .

---

١ تاج العروس (٩/٩٢ وما بعدها) ، (وسم) .
٢ تاج العروس (٩/٦٠ وما بعدها) ، (لطم) .

غنائم الحروب :

وللملوك مورد آخر من موارد دخلهم ، هو غنائم الحروب . فإن ما يغنمه جيشهم من مال وأشياء ثمينة وأسرى يكون ملكاً للملوك، وإذا فاض عدد الأسرى عن حاجة الملوك باعوهم في أسواق النخاسة ، للاستفادة من ثمن بيعهم . أما إذا قرر الملك الاحتفاظ بالأسرى ، فإنهم يستخدمون في أعمال كثيرة ، مثل الخدمة في الجيش ، أو الاشتغال بشق الطرق وانشاء الأبنية والعمل في الأرض ، إلى غير ذلك من أعمال يشغلون بها باعتبار انهم رقيق . وقد يهدي منهم الملوك الى المقربين اليهم ، ولا سيما بعد انتهاء الحرب أو الغزو واحصاء الأسرى ، فقد يختار الملك لنفسه أجمل الأسيرات . وقد يعطيهن هدايا إلى من يشاء من قواد جيشه ومن كبار موظفيه والمقربين اليه .

وتشمل غنائم الحرب كل ما يقع في أيدي المنتصر من غنيمة ، لا فرق عنده إن كانت من أموال الحكومة الخاسرة أو من أموال سيد القبيلة المغلوب ، أو من أموال الأتباع والرعية . فقانونهم في الحرب ان كل ما يقع في أيدي الغالب هو ملك له ، ان كانت الغنيمة من أموال الحكومة أو من أموال الرعية فالرعية ملك للملك ، وملكها ملك للغالب بحق القوة ، وهي نفسها ملك له يتصرف بها كيف يشاء . لذلك تكون غنائم الحروب مورداً حسناً بالنسبة للغالب ، لا سيما إذا كان المغلوب من أصحاب الثراء والمال ومن الحضر .

وكان الأمير في الجاهلية يأخذ الربع من الغنيمة ، وجاء الاسلام فجعله الخمس وجعل له مصارف . ومنه قول : عدي بن حاتم الطائي : ربعت في الجاهلية وخمست في الاسلام . أي قدمت الجيش في الحالين[1] .

الاقطاع والاقطاعيون :

والاقطاع معروف بين الجاهليين ، وخاصة بين أهل العربية الجنوبية . وقد كان اقطاعاً للارض لتستغل زراعة ، واقطاعاً لاستغلال ما فيها من ماء أو معدن

---

١ تاج العروس (٤/١٣٩) ، (خمس) .

مثل الملح . وكان الملوك يقطعون أملاك الدولة لمن شاءوا ، كما فعل المعبد ذلك، إذ كان يقطع الأرض المحبوسة باسمه لمن يشاء من الناس .

وقد كانت العادة في اليمن جارية بإقطاع المعادن والمياه لأصحاب السلطان ، كأن يقطع (الملح) لشخص ليستغله ، فيشغل من يريد في استخراجه وبيعه . وقد وردت في الكتابات الجاهلية إشارات الى استغلال معادن الملح ، والى إقطاعها الأشخاص يستخرجون الملح منها في مقابل أجر يدفع عن ذلك الإقطاع . وقد بقيت هذه العادة إلى الإسلام ، فقد ورد في كتب الحديث : أن (الأبيض بن حمال) استقطع رسول الله ملح مأرب،فأقطعه[1] . ولما ذكر (الأقرع بن حابس) للرسول أنه قد ورد ذلك الملح ورآه ، وانه مثل الماء العِدّ بالأرض ، من ورده أخذه ، وان إقطاعه له يمنع الناس من وروده ، فاعتدّهُ الرسول صدقة ، وجعله مثل الماء العِدّ[2] .

والإقطاع يكون تمليكاً وغير تمليك . فإذا كان تمليكاً ، صار له ليس لأحد حق مزاحمته عليه ولا استثماره ، ويكون عندئذ ملكه . وله حق تأجيره لغيره أو اعطائه في مقابل حق يعينه في الحاصل والناتج . وقد كان الملوك في العربية الجنوبية يقطعون أصحاب الجاه والسلطان وسادات القبائل الإقطاعات،فتولد من هذا الإقطاع كبار أصحاب الأرض ، وصار لهم سلطان واسع بحكم ما حصلوا عليه من مال وقوة وجاه . حتى صاروا يتدخلون في شؤون الدولة الداخلية .

وأما الإقطاع الثاني ، وهو إقطاع من غير تمليك فإنه إقطاع لأمد قد يحدد بزمن ، وقد لا يحدد بزمن ، وذلك بشروط تثبت وتحدد في عقد الاتفاق ، كأن يتفق على أن يقدم من يقطع له الإقطاع ثلث الحاصل أو الغلة أو الربع أو ما شابه ذلك ، أو أن يقدم مبلغاً مقطوعاً أو عيناً يذكر ويثبت مقداره ، أو خدمة معينة للدولة أو للمعيد الإقطاعي صاحب الملك،مثل تقديم عدد معين من المحاربين وقت الطلب ومقدار معين من مال أو عين .

وقد لا يستغل الإقطاعي اقطاعياته ، وإنما يقوم بإقطاعها للإقطاعيين الصغار ، أو يؤجرها لمن هم دونهم في المكانة ليقوموا هم باستغلال ما استأجروه ، وقد

---

١ الأحكام السلطانية (١٩٧) ، اللسان (٢٨١/٨) .
٢ الأحكام السلطانية (ص ١٩٧) .

يعطيها للفلاحين للاشتغال بها بشروط يتفق عليها معهم . ويكون الإقطاعي قد استفاد من إقطاعه من غير تعب أو جهد .

وفي الكتابات الجاهلية ان سادات القبائل كانوا يملكون اقطاعيات واسعة يديرونها باسم قبائلهم ، وقد تزيد اقطاعياتهم عن حاجات القبيلة ، لذلك يؤجرونها لقبائل أخرى تكون في حاجة إلى الأرض في مقابل خدمات تؤديها للقبيلة المؤجرة صاحبة الأرض وفي مقابل حقوق عينية تثبت وتعين وتدفع عند حلول الآجال المعينة في العقد . وتعتبر القبيلة التي تستغل الأرض نفسها تابعة للقبيلة التي تملك الأرض .

وللفقهاء آراء في الاقطاع في الاسلام ، بأنواعه : اقطاع التمليك ، واقطاع الإرفاق ، واقطاع المَوَات[1] .

وقد عاش الاقطاعيون على استغلالهم لخيرات الأرضين الواسعة التي امتلكوها ، والتي درّت عليهم أموالاً طائلة ، خلقت لهم قوة مهابة في البلاد ، صيّرت بعضهم حكومة في داخل حكومة . عاشوا في قلاع وقصور حصينة حمتها حصون متينة ، لهم أتباعهم وحرسهم ، وصارت لهم سطوة لا تقل عن سطوة كبار رجال الدين ، بل زادت على سطوتهم فيما بعد الميلاد ، حيث صاروا ينافسون الملوك ويتحدّون إرادتهم في كثير من الأحايين ، مما أقلق الوضع السياسي ، وهزّ صرح الحكومات . وأوجد مجالاً لتدخل الأحباش في شؤون اليمن .

حقوق سادات القبائل وامتيازاتها :

ولسادات القبائل بحكم منازلهم ومكانتهم في قومهم امتيازات وحقوق ، ولهم في مقابلها واجبات عليهم أدبياً تبعة القيام بها لرعيتهم ، وهم أفراد القبيلة .

وفي جملة حقوق سيد القبيلة حق (المرباع) وهو حقه في أخذ ربع الغنائم إذا وقع الغزو[2] . وأخذ (المرباع) هو من أمارات الفخر والجاه والرئاسة عند العرب ولذلك كان يتباهى به من له هذا الحق ، ويفتخر أهله بهذا الحق، لأنه من سماء

---

١ اللسان (٢٨١/٨) .

٢ اللسان (٤٥٧/٩) ، تاج العروس (٣٣٢/٥) وما بعدها ، المعاني الكبير (٩٤٨/٢) ، النهاية (٦٢/٢) ، الصاحبي (ص ٩٠) .

الرئاسة والشرف . وقد افتخر (الزبرقان بن بدر التميمي) أمام الرسول بأنه من حي كرام ، فلا حي يعادلهم منهم الملوك وفيهم يقسم الربع ، أي انهم كانوا يأخذون ربع الغنيمة خالصاً ، وهو المرباع[1] . وكان (عدي بن حاتم) ممن يأكل (المرباع)[2] . ويروى ان الرسول قال له : « انك لتأكل المرباع وهو لا يحل لك في دينك »[3] .

وقد عرف سادات القبائل الذين يأخذون المرباع بـ (ذوي الآكال)[4] ، ولهم مقام عندهم بالطبع ، ولهذا منحوا امتيازات في الغنائم ، فوقتهم على سائر الناس . وقد ذكرهم (ابن حبيب السكري) ، فقال عنهم : « ذوو الآكال من وائل . وهم أشراف كانت الملوك تقطعهم القطائع . فأما مضر، فكانوا لقاحاً لا يدينون للملوك إلا بعض تميم ممن كان باليمامة وما صاقبها . فذوو الآكال : قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن عبدالله ذي الجدين بن عمرو بن الحارث ابن همام بن مُرّة بن ذهل بن شيبان . وكان كسرى أطعمه الأبلة وثمانين قرية من قراها ، ويزيد بن مسهر بن أصرم بن ثعلبة بن أسعد بن همام بن مُرّة بن ذهل بن شيبان ، والحارث بن وعلة بن المجالد بن يثربي بن الزبّان بن الحارث ابن مالك بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة »[5] .

وذوو الآكال ، سادة الأحياء الآخذين للمرباع وغيره . قال الأعشى :

حولي ذوو الآكال من وائل كالليل من بادٍ ومن حاضر[6]

والمرباع حق قديم نجده عند أكثر القبائل ، وظلّ إلى مجيء الاسلام ، لا ينازعها عليه منازع من القبيلة ، فكان آل الحارث بن عبدالله بن بكر بن يشكر المعروفون بالغطاريف يأخذون ربع ما يغنم الأزد جميعاً ، لأن الرئاسة في

---

١ نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا يقسم الربع
شرح ديوان حسان (ص ٢٤٥) (للبرقوقي) ، اللسان (١٠١/٨) ، النهاية (٦٢/٢) .
٢ معجم الشعراء (٢٥٠) .
٣ النهاية (٦٢/٢) ، اللسان (١٠١/٨) (صادر) .
٤ شمس العلوم (حـ ١ ق ١ ص ٨٩) .
٥ المحبر (٢٥٣) .
٦ تاج العروس (٢١٠/٧) ، (أكل) .

الأزد كانت لهم[1] .

ومن أكل (المرباع) (عامر الضحيان) ، وكان سيّد (النمر بن قاسط) في الجاهلية وصاحب مرباعهم[2] .

ومن (المرباع) جاءت (الرباعة) ، بمعنى الرئاسة . يقال هو على رباعة قومه ، أي سيّدهم . ويقال : ما في بني فلان من يضبط رباعته غير فلان ، أي أمره وشأنه الذي عليه . ويقال : لا يقيم رباعة القوم غير فلان . و(الرباعة)[3]، الحال والطريقة والإستقامة . وفي كتاب الرسول للمهاجرين والأنصار : انهم أمة واحدة على رباعتهم . أي على استقامتهم . وأمرهم الذي كانوا عليه[4] .

ولسيد القبيلة حق آخر مفروض على قبيلته ، هو حق (الصفايا) ، وهو ما يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة من فرس وسلاح أو جارية وغير ذلك من الأموال قبل القسمة . وكانت (صفيّة بنت حيي) في جملة الصفايا التي اصطفاها الرسول لنفسه يوم خيبر ، ومنه قيل للضياع التي يستخلصها السلطان لخاصته (الصوافي)[5] . وقيل : الصفايا ما يصطفيه الرئيس لنفسه دون أصحابه مثل الفرس ، وما لا يستقيم أن يقسم على الجيش لقلته وكثرة الجيش . وقيل أيضاً الصفى أن يصطفى الرئيس لنفسه بعد الربع شيئاً كالناقة والفرس والجارية.والصفى في الإسلام على تلك الحالة[6].

ثم له حق (النشيطة) ، وهو ما أصاب من الغنيمة قبل أن يصير الى مجتمع الحي . وقيل : النشيطة من الغنيمة ، ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصير الى بيضة القوم . وقيل : ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل بلوغهم المواضع التي قصدوها ، أو ما أنشط من الغنائم ولم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب[7] .

وأما الفضول ، وهو حق آخر من حقوق الرئيس ، فهو ما عجز أن يقسم

---

١ الأغاني (٤٨/١٢ وما بعدها) .
٢ الاشتاق (٢٠٢) .
٣ بالفتح وتكسر .
٤ تاج العروس (٣٤٢/٥ وما بعدها) ، (بعد) .
٥ اللسان (٤٥٧/٩) ، تاج العروس (٢٣٢/٥) ، المعاني الكبير (٩٤٨/٢) ، النهاية (٢٩٢/٢) ، الخراج (٢٢ وما بعدها) ، الصاحبي (ص ٩٠) ، النهاية (٢٦٨/٢) .
٦ تاج العروس (٢١١/١٠) ، (صفا) . (٧) المعاني الكبير (٩٤٩/٢) ، اللسان (٤١٤/٧) ، تاج العروس (٢٣١/٥) ، الصاحبي (٩٠) .

لقلته وما فضل عن القسم فيخصص به ، كالبعير والفرس ونحوهما[1] .

وقد أشير الى حقوق سيد القبيلة المذكورة في هذا البيت من الشعر المنسوب الى عبدالله بن عنمة الضبّي ، أو الى الأفوه الأودي :

لك المرباع منّـــا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول[2]

الحمى :

ولسيد القبيلة حق (الحمى) ، وهو من أمارات عزه وشرفه وسيادته . فكان إذا مرّ سيد قبيلة برمضة أعجبته ، أو بغدير أعجبه ، أعلن حمايته عليها أو عليه الى حد يعينه ويثبته ، فلا يقترب أحد من ذلك الحد ، وهو في ذلك مثل الملوك في هذا الحق . ولهذا لم يتمتع بهذا الحق إلا سادات القبائل الكبار أصحاب العز والجاه وكثرة العدد ، مثل (كليب وائل) سيد ربيعة ، وكانت رئاسة مضر وربيعة له في أيامه ، وكان من عزه انه اذا مر بمكان أعجبه كنـــع كلباً له ثم رمى به هناك ، فلا يسمع عواء ذلك الكليب أحد ، فيقرب ذلك الموضع . فكان يقال : (أعز من كليب وائل)[3] .

وقد تفرد العزيز من سادات القبائل بالحمى،وعدّوه من أمارات العز والمنعة ، فلا يناله إلا كبار سادات القبائل . وذكر ان (كليب وائل) كان متغطرساً ، حتى كانت غطرسته هذه سبب قتله . والى ظلمه وتعسفه ، وأخذه الحمى ، أشار (العباس بن مرداس) بقوله :

كما كان يبغيها كليب بظلمه من العز حتى طاح وهو قتيلها
على وائلٍ إذ يترك الكلب نابحاً وإذ يمنع الأقناء منها حلولها[4]

---

١ اللسان (٤١٤/٧) ، (٥٢٥/١١ وما بعدها) ، تاج العروس (٦٣/٨) ، الصاحبي (ص ٩٠) .

٢ المعاني الكبير (٩٤٨/٢) ، الأصمعيات (ص ٢٨) ، الصاحبي (ص ٩٠) ، تـاج العروس (٢١٠/١٠) ، (صفا) .
قال عبدالله بن غنمة يخاطب بسطام بن قيس :
لك المرباع فيها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضـــول
اللسان (٤٦٢/١٤) ، (صفا) .

٣ الفاخر (ص ٧٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٠٤) .

٤ الأحكام السلطانية (ص ١٨٦) .

والحمى الأرض التي تحمى من الناس فلا يرعى فيها إلا بموافقة من حماها . وقد جعله بعضهم : (موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يُرعى) . وذكروا أنه « كان الشريف من العرب في الجاهلية إذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلباً فحمى لخاصته مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد . وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله »[1] .

ويظهر من غربلة ما ورد في الأخبار عن (الحمى) ، أنه كان على نوعين: حمى دائم أو طويل الأجل ، وهو الأرض المخصبة الجيدة المنبتة التي تتوفر فيها المياه ، أو تكون المياه فيها قريبة من سطح الأرض ، فيتقيها كبار سادات القبائل ويجعلونها حمى دائماً لهم ولأسرتهم ، وقد يحولونه الى ملك لهم ، يتوارث توارث الإرث ، ويكون لمن هو من الأسرة التي حمته ، أو لمن خصص الحمى باسمه . ومن هذا القبيل (حمى ضرية) ، مرعى لإبل الملوك[2] ، ومراعي الملوك الأخرى .

وحمى آخر ، يكون قصير الأجل بالنسبة للحمى الأول . فقد يحمى لموسم وقد يحمى لمواسم ، فأجله مرتبط بأجل الغيث الذي ينزل عليه . فإذا جاد ووصل الأرض وأنبتها نباتاً حسناً وكساها بساطاً أخضر ، بقي حامي الحمى به ، وإن انحبس المطر عنه ، وجفّ كل شيء به ، ورفع ذلك البساط عنه ، وظهرت عبوسة الرمال والتربة المتهشمة من تحته ، فقد يهرب حاميه منه ليفتش عن أرض أخرى يعيش عليها ، فيصير الحمى عندئذ بلا حام ، إلا اذا عاد الغيث اليه ، وعاد صاحبه ليجدد عهده به ، وليثبت حق حمايته عليه ، وإلا ، فقد يصير في حماية شخص آخر قد ينزل به قبله ، ويكون لديه من القوة والمنعة ما لا يستطيع أحد من زعزعته عنه .

ولا بد وان تحدد حدود الحمى وان تثبت له أنصاب وعلامات ، حتى يكون الناس على بينة من حدوده فلا يدخلونه . ونجد في الكتب التي دوّنها الرسول للوفود التي زارته ، والتي حمى لها أحمية ، حدوداً ومعالم دونت أسماؤها فيها ، وقد تثبتت مساحتها في بعض الكتب ، مما يدل على ان ما يرويه أهل الأخبار من

---

١ اللسان (١٤/١٩٩) ، (حما) ، تاج العروس (١٠/٩٩ وما بعدها) (حما) ، الأم ، للشافعي (٣/ ٢٧٠) ، السمهودي ، وفاء (٢/٢٢٤) .

٢ اللسان (١٤/١٩٩) ، (حما) ، تاج العروس (١٠/١٠٠) ، (حما) .

قصة تعيين حدود الحمى بعواء كلب أو بركضة فرس أسطورة من أساطير أهل الأخبار .

ومن أشهر مواضع الحمى في جزيرة العرب : حمى ضرية . وقد عرف في ايام ملوك كندة بـ (الشرف) وهو (كبد نجد) ، وكانت بـه منازل الملوك من بني آكل المرار . ثم عرف بـ (ضرية) في وقت لا نستطيع تحديده تماماً ، ويذكر علماء اللغة ان (ضرية) امرأة سمي الموضع بها ، وهو بأرض نجد ، وبه بئر . ويظهر ان اسم (ضرية) كان معروفاً في ايام ملوك كندة من بني آكل المرار ، ولكنه كان اسم موضع من مواضع الشرف ، ثم اشتهر ، فسمي به هذا الحمى : حمى ضرية[1] . وذكر بعض أهل الأخبار ان (ضرية) أكبر الأحماء ، وقد سمّي بـ (ضرية بنت ربيعة بن نزار)[2] . قال (ابن السكيت) : « الشرف كبد نجد وكان من منازل الملوك من بني آكل المـرار من كندة . وفي الشرف حمى ضرية وضرية بئر . وفي الشرف الربذة وهي الحمى الأيمن . وفي الحديث ان عمر حمى الشرف والربذة »[3] . ويظهر من هذا الوصف ان (الشرف) أرض واسعة بنجد . منها الربذة وهو الحمى الأيمن لمن يتجـه الى الجنوب فيوجه وجهه نحو البحر العربـي ويجعل قفاه الى العراق وبادية الشام وبلاد الشأم ، ومنها حمى (ضرية) الشهير .

وذكر ان أول من حمى (ضرية) في الاسلام (عمر) حماها ، لإبل الصدقة وظهر الغزاة ، وكان ستة أميال من كل ناحية من نواحي ضرية وضرية في وسطها[4] . و (ضرية) من مياه (الضباب) في الجاهلية ، وكانت لذي الجوشن الضبابـي ، والد شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين[5] . وورد أنها كانت حمى (كليب بن وائل) ، وأن في ناحية منه قبره ، وكان الناس يقصدونه[6] .

ومن الحمى ، حمى فيد . قرب أجأ وسلمى جبلي طيء ، عـلى طريق حاج العراق الى مكة . وذكر أن فيداً فلاة في الأرض بين أسد وطيء في الجـاهلية ،

---

١ اللسان (١٤/٤٨٤) ، (ضرا) .
٢ تاج العروس (١٠/٢١٩) ، (ضرى) .
٣ تاج العروس (٦/١٥٢) ، (شرف) .
٤ تاج العروس (١٠/٢١٩) ، (ضرى) .
٥ وفاء الوفاء (٢/٢٢١) ، الاشتقاق (١٨٠) .
٦ وفاء الوفاء (٢/٢٢٩) .

فلما قدم (زيد الخيل) على رسول الله أقطعه (فيد) . وبهـا قرية (فيد) ، سميت بـ (فيد بن حام) أول من نزلها . وهي من القرى الجاهلية[1] .

وقد أشار (ياقوت) الى أحماء أخرى . منها حمى الربذة وحمى النـير وحمى ذو الشرى وحمى النقيع[2] . وذكر أن بـ (النير) قبر كليب وائل[3] . وأن الخليفة (عمر) حمى (النقيع) لخيل المجاهدين ولنعم الفيء ، فلا يرعاها غيرها[4] .

ولا يعقل أن يكون (كليب وائل) أول من حمى الحمى في الجاهلية . والظاهر ان شطط (كليب) وتعسفه) في الإكثار من الحمى ، وشدة منعه الناس الغرباء من الرعي في احمائه ، جعل أهل الأخبار ينسبون مبدأ الإحماء اليه . وقـد تكون لفظة (كليب) الـتي صارت وكأنها اسم كليب مع أنها لقب في الأصل ، هي التي أوحت الى ذهب أهل الأخبار ، بابتكار قصـة استنباح (كليب) جرواً ، ليكون مدى انقطاع سماع نباحه وعوائه نهاية الحمى ، أي حدوده . ونجد بعض أهل الأخبار يجعلون حدود الحمى المواضع التي تصل اليها الخيل وهي جـارية ، فتقف عندهـا من التعب . فيكون الحمى بهذه الطريقة أكبر وأوسع من الحمى المحدد بنباح كلب .

وفي أرض (بني أسد) (حزن) ، كانت ترعى فيه إبل الملوك . وهـو قف غليظ بعيد من المياه ، فليس ترعاه الشياه ولا الحمر ، وليس فيه دمن ولا روث . اليه أشير في قول الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليـه مسيل هطل[5]

ويتبين من دراسة ما أورده أهل الأخبار عن الحمى ، أن الأحماء لم تكن أرضين صغيرة حدودها ضيقة بحدود مدى سماع عواء الكلب ، بل انها كانت أكثر من ذلك بكثير . كانت مقاطعة كبيرة تضم آباراً وعيـوناً وقرى في بعض الأحيـان . وقد حصل عليها أصحابها من الحروب والغزو في الأصل . فعندما يغزو سيد قبيلة

---

١ تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .
٢ ياقوت ، البلدان (٢/٣٤٢) .
٣ تاج العروس (٣/٥٩٣) ، (نير) .
٤ تاج العروس (٥/٥٣٠) ، (نقع) .
٥ تاج العروس (٩/١٧٤) ، (حزن) .

قبيلة أخرى ، كان يختار لنفسه خيرة الأرضين فيجعلها في حماه . فنشأ الحمى في الأصل هو من الحروب والغزو ، أي من الغنائم التي تقع في أيدي المنتصر، ومن الهبات التي يعطيها ملك لأشراف شعبه ولقادته في السلم أو في الحروب . فتحمى لهم ولا يدخلها أحد غيرهم ، إذ صار حكمها حكم الملك .

وذكر أن الملوك إذا جاءتها الخرائط بالظفر ، غرزت فيها قوادم ريش أسود[1] .

دواوين الدولة :

ولا بد وأن يكون لكل حكومة مهما كان حجمها وشأنها دواوين ودوائر لتنفيذ ما تقرره من أوامر وأحكام ، ولجباية ما تفرضه من حقوق على رعيتها،ولاحقاق الحق بين الرعية وللدفاع عن حدودها ولضبط الأمن في أرضها ، ولا يمكن تصور وجود حكومة ، بدون وجود ما ذكرته .

وقد سبق لي أن ذكرت ان قصور الملوك في العربية الجنوبية كانت موضع حكمهم ومقر عملهم ، ولهذا السبب ذُكرت أسماؤها في القوانين،لتكنى بذلك عن صدورها بأمر من الملك وبموافقته عليها . والمفروض ان أولئك الملوك كانوا قد خصصوا جناحاً أو أجنحة فيها لجلوسهم مع مستشاريهم وكبار موظفيهم للنظر في شؤون الحكم ، أو لاستقبال الرسل والوفود الذين يقصدونهم من الخارج أو من داخل المملكة لمقابلتهم ولعرض ما جاؤوا به من رسائل أو طلبات عليهم ، وأن هنالك مواضع يجلس فيها الملوك للاستماع الى شكاوي الناس وظلاماتهم ، ومواضع لجلوس الكتّاب وموظفي القصر ، ومواضع لخزن السجلات والوثائق . فقصور الملوك ، اذن هي بهذا المعنى ، دار الحكم الأولى في تلك الحكومات ، والمرجع الأول للرعية في علاقتها وصلتها بصاحب المملكة .

ذلك ما كان بالنسبة الى عواصم الملوك ، أما بالنسبة الى بقية أجزاء المملكة ، فإن الحكم فيها هو الى ولاة وعمال ثم الى من هم دونهم في المنزلة والدرجة . وبيوتهم هي دور حكمهم يجلس العامل أو الوالي أو (الكبير) في جناح من

---

١ الحيوان (٤١٨/٣) ، (هارون) .

بيته ، ليأتيه من يريد مقابلته من موظفين وكتبة ليقصوا عليه ما عندهم من أخبار وطلبات ، وليملي عليهم ما يراه من أحكام وأوامر . وفي هذا البيت أيضاً يستقبل الضيوف وأعيان البلد وأصحاب الشكاوي والمراجعات . وفيهـا يقيم مع عائلته . فبيوت الحكام اذن ، هي دور اقامة ودور حكم وقضاء بين الناس في آن واحد .

وأما ما ورد في روايات أهل الأخبار من أن ملوك الحيرة كانوا قد اتخذوا قصورهم مكاناً للنظر في أمور رعيتهم ، ولاستقبـال الرسل والوفود ، وللاستماع الى ظلامات الناس وشكاويهم ، وانهم كانوا قد أوكلوا أمر ادخال الرعية عليهم إلى حجاب معينين ، لا يسمحون لأحد بالدخول على الملك إلا بعد أخذ اذن منه بذلك، فإنه يدل على أن ملوك الحيرة كانوا مثل ملوك العربية الجنوبية ومثل ملوك ذلك الوقت قد اتخذوا بيوتهم داراً للحكم وداراً للإقامة . وان قصر الملك هو أيضاً دار الحكم بين الناس ، والمشروع للأحكام .

وإذا أخذنا بما ورد في كتب أهل الأخبار من أن (دار الندوة) كانت مرجع أهل مكة في كل أمر من أمورهم صغر أم كبر ، حتى أن (الجارية إذا حاضت أدخلت دار الندوة ، ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف بن عبد الدار درعها ثم درّعها إياه وانقلب بها الى أهلها فحجبها . وكان عامر بن هاشم بن عبد مناف عبد الدار يسمى محيضاً)[1] ، جاز لنا القول إن تلك الدار كانت دار حكومة . اليها يرجع أهل مكة في منازعاتهم وفي خصوماتهم وفي أمـور سلمهم وحربهم . وأن أبناء قصيّ كانوا قد وزعوا أعمالها بينهم على نحو ما سطره أهل الأخبار .

ولفظة (ديوان) من الألفاظ المستعملة في الجاهلية عند عرب العراق ، ويذكر علماء اللغة أنها من الألفاظ المعربة عن الفـارسية[2] . وقد كان للفرس دواوين في جملتها ديوان خاص للنظر في أمور العرب ، واجبه النظر في صلات (كسرى) مع ملوك الحيرة وسادات القبائل . وليه (زيد) والد (عدي بن زيد العبادي)، فلما توفى (زيد) وليه ابنه من بعده ، ثم وليه (زيد بن عدي بن زيـد) ، بعد مقتل والده على يد (النعمان بن المنذر) . ولا أستبعد وجـود الدواوين في حكومة الحيرة . فقد كان لها كتّاب تولوا أمور ديوان المراسلة بين ملوك الحيرة

---

١ الأزرقي (٦٦/١) ، (ما جاء في ولاية قصي بن كلاب البيت الحرام) .

٢ اللسان (١٦٦/١٣ وما بعدها) ، (دون) ، تاج العروس (٢٠٤/٩) ، (دون) ، غرائب اللغة (٢٢٩) .

والفرس ، وأمور المراسلة فيما بين ملوك الحيرة وبين عمالهم على الأرضين التابعة لهم وبينهم وبين سادات القبائل . أما ما ورد في أخبار أهل الأخبار من أن الخليفة (عمر بن الخطاب) ، هو أول من أمر بتدوين الدواوين ، فإنهم قصدوا بذلك موضوع تأسيس ديوان العطاء وموضوع تدوين الدواوين في الإسلام . مما لا مجال للبحث عنه في هذا المكان . وورد اسم (الديوان) في الحديث . ذكر أن الرسول قال : « إنّ لله حراساً ، فحرّاسه في السماء الملائكة ، وحراسه في الأرض الذين يأخذون الديوان »[1] .

صاحب السر :

وذكر علماء اللغة ان الملوك كانوا يسرّون أمورهم الى من يثقون به من رجالهم المقربين اليهم . وقد عرف صاحب سر الملك بـ (الناموس) ، وذكر بعضهم ان (الناموس) هو صاحب سر الخير ، وان (الجاسوس) هو صاحب سر الشر[2] .

الموظفون :

ودون الملك أناس يختلفون في المنزلة والمكانة،عهدت اليهم أمور ادارة الحكومة والشعب . وهم نوعان : موظفون مدنيون ، واجبهم النظر في الأمور المدنية . وموظفون عسكريون ، واجبهم إعداد الجيش والدفاع عن حدود الدولة والقضاء على الفتن والاضطرابات ، وتوسيع رقعة أرض الدولة عند الطلب .

وإني آسف إذ أقول إن من غير الممكن في الزمن الحاضر تثبيت درجات الوظائف ، وتعيين سلالمها من أدنى درجة الى أعلى درجة ، لعدم وصول كتابات جاهلية الينا فيها حصر تلك الدرجات وعدّها وترتيبها ، لهذا سأحاول ترتيبها على حسب ما وصل الينا من شأنها من مختلف الكتابات ، وعلى وفق ما ورد من أسماء

---

١ الدينوري ، عيون الأخبار (٢/١) ، (كتاب السلطان) ، (٥٠/١) ، (انما قيل ديوان لموضع الكتبة والحساب ، لأنه يقال : للكتاب بالفارسية ديوان أي شياطين لحذقهم بالأمور ولطفهم فسمي موضعهم باسمهم) .

٢ تاج العروس (٢٦٤/٤) .

بعضها في المسند أو في روايات أهل الأخبار ، وعلى حسب اجتهاد الباحثين الذي توصلوا اليه باستنادهم الى المرجعين المذكورين .

واذا سألتني عن المصدر الذي استقيت منه أسماء الوظائف والدرجات التي أذكرها هنا ، فإني أقول : لقد حصلت عليها من ورودها في الكتابات التي عثر عليها المنقبون في مواضع من العربية الجنوبية وفي أعالي الحجاز وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب أخذتها من هذه الكتابات ، وعينت درجتها ومكانتها بالاستناد الى المعنى المستنبط من النصوص . وبالقياس أحياناً الى المفردات الواردة في معاجم اللغة أو في اللغات السامية الأخرى حيث يرد ما يماثلها في تلك اللغات علماً لوظائف معروفة ، بقيت أسماء بعض منها معروفة أو متداولة الى يومنا هذا .

ونستطيع أن نقول بالقياس الى ما هو مألوف في قصور الملوك المعاصرين لملوك الجاهلية أن كبار متولي أمور قصور الملوك وكبار قادة الجيش ، كانوا من أقرب الناس الى الملوك، ومن أكثر الناس تأثيراً فيهم ، وذلك بحكم اتصالهم بهم والتصاقهم بالعرش . فكانت لهم كلمة مسموعة عندهم . فهم من الصنف الممتاز من أصناف الموظفين ، ولهم أثر خطير في تأريخ تلك الحكومات .

وتختلف درجات المشرفين على أمور القصور الملكية ، فمنهم الحرس الخاص الذي يتولى حراسة القصر ، ومنهم الخدم والطباخون ، ومنهم من اختص بخدمة الملك وحده ، كأن يقوم بتقديم الطعام اليه ، ومنهم من اختص بتقديم الشراب اليه ، أو يتولى أمر الحجابة له ، ومنهم من كان يكتب له ، أو يخدم زوجاته وذريته ، الى غير ذلك من أعمال اقتضتها طبيعة تلك القصور ودرجة الملك ومنزلته وقد عرف كل هؤلاء بـ (عبيد الملك) عند بعض الشعوب[1] .

والطبقة المذكورة ، وإن كانت من الطبقات الدنيا بالنسبة لطبقات المجتمع ، وظيفتها الطبخ وتقديم الأشربة والأطعمة والسهر على راحة الملك وضيوفه ، إلا أن رهطاً منها تمكن مع ذلك من لعب دور خطير في أمور المملكة ، وفي مقدرات الناس، بفضل استخدام ذكائهم وقربهم من الملك ووجودهم بحضرته بصورة دائمة، من التأثير على سيّدهم وتوجيهه الوجهة التي يريدونها . كما تمكّنوا من الحصول على مكانة كبيرة عند قومهم ، باتصالهم بحكم مراكزهم بأعيان النـاس . وبنوال

---

١ Ancient Israel, p. 120.

جوائزهم وهباتهم ، ليفتحوا بذلك لهم الباب للوصول الى الملك في كل وقت . ثم بإيصالهم أخبار المجتمع ولا سيما سادته الى الملك وبأخبارهم هذه صار في امكانهم ابعاد شخص أو تقريبه من الملك ، واهلاك شخص أو اسعاده برضاء ملكه عنه .

الكبراء :

وأعلى مناصب الدولة ودرجاتها الإدارية هي درجة (كبر) أي كبير . ويجب أن أكون حذراً جداً في التعبير . فكلمة (كبر) (كبير) ، ليست منصباً أو وظيفة أو درجة بالمعنى المفهوم من هذه الألفاظ الاصطلاحية في الزمن الحاضر، ولكنها لفظة عامة قد تعني ممثل ملك على مقاطعة ، مثل (كبرددن) أي (كبير) أرض (ديدان) في حكومة (معين) وتقع في أعالي الحجاز ، وهي (العلا)[1] وقد تعني موظفاً كبيراً من رجال الملك المقربين اليه ، عيّنه الملك واختاره لتنفيذ أوامره وأحكامه ، أو للاشراف على إدارة أملاكه وأمواله وتدبير شؤون قصره[2] ، أو لاعداد ما يلزم من اعاشة جيش وتقديم ما يحتاجه اليه[3] . وقد تعني درجة عليا من درجات رجال الدين، أو كبيراً من كبارهم تناط به شؤون إدارة أملاك المعابد وأموالها . وقد تعني سيد قبيلة ، أو رجلاً كبيراً عيّنه الملك مندوباً عنه ليشرف على تصريف أمور الحكم على قبيلة . وقد تعني (الكبير) المسؤول عن تصريف أمور المدن . فقد كان الذي يسيّر أمور مدينة (تمنع) مثلاً مسؤولاً درجته درجة (كبر) (كبير) واتضح من بعض الكتابات ان مدينة (ميفعة) (ميفعت) الحضرمية كانت تحت حكم (كبير)[4] .

وقد أشير الى وجود (كبر) (كبير) في سبأ ، كان يتولى درجة دينية . إذ كان من كبار رجال الدين . وورد اسم (كبير) آخر كان عمله ادارة بساتين الملك ومزارعه والإشراف عليها[5] . وورد اسم (كبير) كان عمله الإشراف على أعمال الصرف والانفاق على الجيوش[6] . وورد اسم (كبير) آخر كان يتولى رئاسة

١ Rhodokanakis, Kat. Texte, I, S. 75, Glaser 1155, Halévy 535, 578.
٢ Rep. EPIGR. 4054.
٣ Rep. EPIGR. 3951, Arabien, S. 130.
٤ Arabien, S. 130.
٥ Rep. EPIGR. 4054, Grohmann, S. 130, Glaser 1571.
٦ Rep. EPIGR. 3951, Grohmann, S. 130.

قبيلة[1]، فيستنتج من هذه الأمثلة ان لفظة (كبر) لا يقصد بها درجة معينة من كبار الموظفين ، بل أريد بها علية قوم وأعيانهم وكبارهم ، ولهذا أطلقت على من ذكرت أعيان سبأ وعلى المنازل الكبيرة التي كان على رأسها كبير من كبراء الناس من رجال دين ومن عسكريين ومن موظفين أو مدنيين غير موظفين .

والكبراء بالطبع هم من أصحاب الجاه العريض والوجاهة والمنزلة والثراء ، وهم كبار الأحرار في الأرض ، ولأهميتهم ومكانتهم أرخ الناس حوادثهم وما وقع لهم بأيامهم ، وقد حملت الكتابات أسماء طائفة منهم ، دلالة على ما كان لهم من اسم وسلطان في ذلك العهد[2] .

ومن أشهر الكبراء (كبر خلل) ، أي كبير خليل . وخليل عشيرة قديمة . وقد ذكر كبيرها في الكتابات السبئية القديمة، كما ذكر في الكتابات المتأخرة كذلك. وقد أرخ بهؤلاء الكبراء عدد من الكتابات السبئيـــة . ويظهر أن (كبر خلل) (كبير خليل) كان كاهناً ، أي رجل دين في الأصل ، يشرف عـــلى معبد (عثتر ذ ذبن) (عثتر ذو ذبن) . ويقدم الذبائح الى هـــذا المعبد ، ويدعو الآلهة لإنزال الغيث[3] ، ودعوته آلهته لإنزال المطر ، هي بمثابة صلاة الاستسقاء .

وقد كان بحكم حضرموت في النصف الأول من القرن السادس للميلاد (كبير)، (كبر حضرموت) ، وقد ذكر في نص (أبرهة) في جملة من وفد على أبرهة بعد اتمامه سد (مأرب)[4] .

الأقيان :

جمع (قين) ، وتتألف طبقتهم من الأمراء ومن ممثلي الملك في المدن ، ومن

---

١ Grohmann, S. 130.

٢ Grohmann, S. 130, J. Ryckmans, L'Ist., 25, 34, 122.

٣ Handbuch I, S. 130, Katab. Texte, S. 53, 67.

٤ راجع السطرين ٨٦ ، ٨٧ ، من نص أبرهة : Glaser 618 و CIH 241. ، المنشور في الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة ١٩٥٦ (ص ١٨٦ وما بعدها) ، و
Glaser, Zwei Inschriften Uber dem Dammbruch von Marib, S. 68,
CIH., IV, II, III, p. 278.

الموظفين ومن رجال الدين من درجة (رشو)[1] . وقد ذهب (وبر) Weber الى أن (القين) والـ (رشو) هما شيء واحد[2] . أما (هارتمن) Hartmann فيرى أن القين غير الرشو،فهو وظيفة دنيوية ومركز حكومي . أما (الرشو) فإنه منزلة دينية ، فهو (كاهن) إلّه ما وتعني رئاسة دينية . وقد يستعمل (قين) لأداء المعنيين. أما (رشو) ، فإنه لا يستعمل إلا في الأمور الدينية وفي التعبير عن منزلة كهنوتية[3]. وذهب بعض الباحثين الى ان (القين) (رشو) أيضاً، أي رجل دين،ولكنه تخصص بالأمور الادارية والمالية للمعابد . وقد يتولى قيادة الناس في الحروب أيضاً[4] .

وقد ورد في نص عثر عليه في (حرم بلقيس) اسم كاهن عرف بـ (تبعكرب) (تبع كرب) ، كان رجل دين أي (رشو) و (قينا) في الوقت نفسه على (سحر) . ويدل ذلك على ان رجل الدين هذا كان يجمع بين سلطتين : سلطة دينية هي درجة (رشو) ، وسلطة زمنية هي درجة (قين)[5] .

وفهم من بعض نصوص المسند ان (القين) كان يساعد الملك في ادارة بعض الأعمال ، كما كان ينوب عنه في ادارة المدينة أو المعبد. وفهم من نصوص أخرى انه كان يدير أملاك المعابد،وانه كان يتولى قيادة الجيش أو تهيئة ما يحتاج اليه[6] . واستدل من تعداد هذه الأعمال المدونة في النصوص ، ان عمل (القين) لم يكن عملاً معيناً محدوداً بحدود وقيود ، وانما كان يشمل كل عمل وشغـــل كان الملك يعهد به الى أحد الأقيان . أي ان القين لم يكن موظفاً يشغل وظيفة معينة محددة، بل كان من كبار رجال الدولة ومن السادات ، له مواهب وكفاءات وله قرب وحظوة عند الملك ، فإذا احتاج الملك الى انجاز عمل ما ، كلف أحـــد أقيانه القيام به .

والقين دون الكبير في الدرجة ، فقد جاء في بعض الكتابات ان الأقيان كانوا يخضعون للكبراء[7] ، كما يتبين ذلك من كتابات عثر عليهـا في (شبام اقيان)

---

١ Handbuch I, S. 131.

٢ Weber, Studien, III, S. 43.

٣ Hartmann, Arab. Frage, S. 181.

٤ Grohmann, S. 130.

٥ راجع الفقرة الأولى من النص الموسوم بـ : Glaser 481 :

٦ Grohmann, S. 130. Rhodokanakis, Stud., II, S. 15.

٧ Halevy 150, Handbuch, I, S. 131, Grohmann, S. 130.

(شبم اقين) ، ومن كتابات أخرى عثر عليها في (عمران) من (مرثد) من قبيلة (بكيل)[1] .

وقد كان الأقيان طبقة خاصة من طبقات أهل الحظوة والنفوذ (الارستقراطية) في الدولة وفي المجتمع ، لها رأي مسموع بين الناس وكلمة نافـذة عند الملك . وهم من جماعة أصحاب الأملاك والاقطاع ، قد يعطون أرضهم لغيرهم لاستغلالها مقابل أجر (اثوبت) ، أي كراء . وقد يستغلون أرضهم بأنفسهم ، بتشغيل فلاحيهم وخدمهم ورقيقهم بها ، فيكون حاصلها لهم ، لا ينازعهم فيه منازع .

الأقيال :

والأقيال هم طبقة من كبار الإقطاعيين من أصحاب الأرضين الواسعة ، ومن رؤساء القبائل كذلك والسادات الكبار . وكانوا يتمتعون بسلطان واسع ، ويقـال للواحد منهم : (قول) في المسند ، و (قيل) في عربيتنا . والجمع (اقول)، أي أقيال .

وقـد جاء في كتابات المسند ذكر أقيال عديدين ، مثل أقيال (سمعي) ، وأقيال (بكيل) من (آل مرثد) . وقد كان على مدينة (صرواح) حاكم درجته درجة قَيْل . وورد ذكر (أقيال حمير) في (حصن غراب) ، وذكر الأقيال في نص (أبرهة) ، كما ورد في نصوص عديدة أخرى .

و (القول) في الأصل المتحدث باسم قوم أو جماعة من فروع قبيلة . كأن يكون رئيس حيّ أو عشيرة أو ما شاكل ذلك من القبيلة،ثم توسع نفوذه وازداد شأنه حتى صار في منزلة (كبر) كبير ، بل حل محله . وعند ظهور الإسلام ، كان للأقيال النفوذ الأوسع في العربية الجنوبية ، حتى حكموا المخاليف ، كالذي يظهر لنا بجلاء من وصف أهل الأخبار لنظام الحكم في اليمن عند ظهور الإسلام[2]. وقد لقب أكثرهم نفسه بلقب (ملك) ، مع أنه دون الملك في الحكم وفي امتلاك

---

١ Handbuch, I, S. 132, Hartmann, Arab. Frage, S. 231, Rhodokanakis, Stud., II, S. 149, Halévy 147, Hommel, Grundriss, S. 687.

٢ Grohmann, S. 130.

الأرض بكثير . بل كان حكم بعضهم أقل من حكم سيد قبيلة .

وذكر علماء اللغة أن (المقول) : المقيل بلغة أهل اليمن ، وهو دون الملك الأعلى ، والجمع (أقوال) و (اقيال) . وذكر بعضهم : أن القيل هو الملك النافذ القول والأمر ، وقيل : الأقيال ، ملوك اليمن دون الملك الأعظم، واحدهم قَيْل ، يكون ملكاً على قومه ومخلافه ومحجره . وقد سمي قيلاً لأنه إذا قال قولاً نفذ قوله . وعرف أنه الملك من ملوك حِمْير يقول ما شاء . وقد كتب الرسول الى (وائل بن حجر) ولقومه : « من محمد رسول الله الى الأقوال العَباهلة ، وفي رواية الى الأقيال العَباهلة »[1] .

وذكر علماء اللغة أن العَباهلة ، هم الذين أقروا على ملكهم لا يزالون عنه ، وعباهلة اليمن ملوكهم الذين أقروا على ملكهم[2] .

ووردت في النصوص السبئية لفظة (قبت) ، يظن أنها بمعنى (نائب الملك) (نائب ملك)[3] .

وجاء في بعض النصوص المعينية ذكر منصب ، عنوانه (حفيه نفس) (ح ف ي ه ن ف س) (حفي نفس)[4] (حافي نفس)،يظهر ان صاحبه كان مكلفاً أن يعمل أعمالاً خاصة ، مثل النظر في شؤون الماء ، أي في توزيعه، وفي الخصومات التي قد تقوض أجله ، ومثل القيام بالاشراف على الأبنية والأعمال العامة وافتتاحها باسم الملك[5] .

ويظهر من بعض النصوص المعينية أيضاً انه كان يعاون هذا الموظف القضائي موظفان ، وضعا تحت إمرته ، يقال لمنصبها (ربقهى معن)[6] ، ربما كانا بمثابة كاتبين عنده .

ويظهر ان حكومة (مَعين) كانت قد كلفت جماعة أخرى النظر في شؤون الري عرفت بـ (اهل طبنتم) وبـ (اطبنو)[7] . واذا علمنا ما للمياه من شأن

---

١ اللسان (١١/٥٧٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٨٢) .

٢ اللسان (١١/٤٢٢) ، تاج العروس (٨/٤) (عبهل) .

٣ Mahram, p. 120.

٤ Rep. EPIGR. 2813, 2829, 3562.

٥ Grohmann, S. 131.

٦ Rep. EPIGR. 3310, Grohmann, S. 131.

٧ Halevy 174, 520, 521, Grohmann, S. 131, J. Ryckmans, L'Inst. 23.

في بلاد العرب ، عرفنا السبب الذي جعل ملوك (معين) يعتنون عناية خاصة بشؤون الري حتى جعلوا لها موظفين خاصين واجبهم رعاية هذه الشؤون[1] .

ويرد في الكتابات ذكر منصب ، يقال له : (مقتوي) ، والجمع (مقتت)[2] . ويعبر عنه بـ (مقتوى ملكن) ، أي (مقتوي الملك) . ويظن بعض الباحثين ان المقتوي ، أو (مقتوي الملك) ، هو ضابط كبير ، أو هو تعبير عن قائد أو مشاور عسكري ، اختصاصه تقديم الرأي الى الملك في الأمور الحربية وقيادته للجيش[3] ، فهو معتمد الملك في هذه الأمور . وقد تؤدي اللفظة معنى (أمير) في العرف الاسلامي في صدر الاسلام . وهو من تسند اليه قيادة الجيش وإدارة الادارة التي توكل اليه وتحدد له حدود (جنده) .

وقد أظهرت نصوص المسند وجود (مقتوت) أيضاً ، أي نساء مقتويات . وقد فسرها الباحثون بـ (كاهنة)[4] .

وعرف من يقوم بإدارة وحدة من الوحدات الإدارية بـ (سمخض) ومعناها (مدير) ، فيكون المعنى : مدير أرض ، ويكون واجبه الإشراف على الأرض التي وُكِلَ أمر إدارتها اليه ، فواجبه إذن هو واجب سياسي وإداري ، وأما وظيفته ، فيقال لها (سمخضت ارض) ، أو (سمخضت) (سمخضة) ، ومعناها إدارة أرض ، أو (إدارة) .

ويعنى مصطلح (امنهت) (امنهات) (اهل امنهتن) المعيني ، منصباً دينياً مختصاً بالإشراف على معامل المعابد، تتولاه امرأة ، ويقابل (امنت ذ عثتر) (امنت ذي عثتر) في القتبانية . وقد ورد معه مصطلح (منوت) (منوات) في بعض الكتابات[5] .

ومن الوظائف وظيفة (ملوطن ملك) (ملوطن) ، وقد تعني وظيفة إدارية تنظر في شؤون أملاك الملك . وقد ورد ذكرها في النصوص السبئية المتأخرة[6] .

---

١ Handbuch I, S. 87, 92, 133.

٢ Grohmann, S. 131.

٣ Grohmann, S. 131, CIH 405, Rep. EPIGR. 4861, 4876, 4892.

٤ Nami 4, Glaser A. 778, Grohmann, S. 131.

٥ Arabien, S. 131, Rhodokanakis, Stud. I, S. 62, Rep. EPIGR. 2912.

٦ Philby 124, Grohmann, S. 131, Rep. EPIGR 3951.

وأما مصطلح (اذن قنى) الذي ورد في أحد النصوص : (اذن قنى ملك حضرمت) ، (اذن قنى ملك حضرموت)[1] فقد يعني المأذون بإدارة مقتنيات ملك حضرموت ، أي وظيفة الإشراف على أملاك الملك وأمواله .

وأما (حشرو) ، فقد تعني جماعة واجبهم جمع الحشر للدولة[2] . وقد يكون لهذه اللفظة علاقة مع ما ورد في الموارد الإسلامية عن (الحشر) و (الحشور) . فقد جاء في الحديث : « إن وفد ثقيف اشترطوا أن لا يعشروا ولا يحشروا »، « أي لا يندبون الى المغازي ولا تضرب عليهم البعوث ، وقيل : لا يحشرون الى عامل الزكاة ليأخذ صدقة أموالهم ، بل يأخذها في أماكنهم ، ومنه حديث صلح أهل نجران: على أن لا يحشروا ، وحديث النساء : لا يعشرون ولا يحشرون يعني للغزاة ، فإن الغزو لا يجب عليهن »[3] . فالحشر إذن قد يكون موظفاً خصص بجباية الضرائب ، أو بجمع الحشور أي الناس الذين يحشرون ويجمعون للحروب أو للقيام بأعمال اجبارية ، فهم مثل (السخرة) الذين يجمعون جمعاً لأداء أعمال من غير أجر . وهو (الحاشر) في لغتنا .

وأما الذي يتولى جباية الضرائب والإشراف على الموظفين الذين توكل أعمال الجباية اليهم ، فيقال له : (نحل) ويقال لوظيفته (نحلت)[4] . ويذكر علماء اللغة ان (النحلة) بمعنى العطية، وان النحل اعطاؤك الانسان شيئاً بلا استعاضة ، وعمّ به بعضهم جميع أنواع العطاء[5] . ويظهر من هذا التفسير ان له بعض الصلة بمعنى اللفظة في المسند ، وان المراد منها في اللغات العربية الجنوبية أخذ المال من الناس . فقد كان الملوك يعطون الأرض لأتباعهم والمقربين لديهم ممن يخدمونهم لاستغلالها ، وذلك في مقابل دفع تعويض عام ، فيقوم هؤلاء باستغلال ما أعطي لهم بأنفسهم ، أو بتأجير الأرض قطعاً الى من هم في خدمتهم ، فيأخذون الربح لهم ، ويقدمون ما اتفق عليه مع الملك الى خزانته .

ويعرف الموظفون الذين يجمعون حصة الحكومة المخصصة باسم الجيش من الحبوب بـ (ساولت) (س ا و ل ت) . وهي ضريبة عسكرية يؤديها المزارعون

---

١ Rep. EPIGR. 2693, Grohmann, S. 131.

٢ Rep. EPIGR. 3951, Grohmann, S. 131.

٣ اللسان (٤/١٩٢) .

٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 67, Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 442.

٥ اللسان (١١/٦٥٠) .

من الحضر والأعراب الى الحكومة ، لتموين الجيش ببعض ما يحتاج اليه من طعام. وتعرف هذه الضريبة العسكرية بتلك التسمية كذلك. فهي ضريبة من ضرائب غلات الأرض[1] .

ويظهر من بعض الكتابات ان بعض الاقطاعات كانت في ادارة مجلس يتألف من ثمانية أشخاص عرفوا بـ (ثمنيتن) أي (الثمانية)[2] ، فهم بمثابة مجلس مديري شركة يدير أمور تلك المقاطعة ، أو بمثابة مشروع زراعي تعاوني ، يتعاون فيه الأشخاص بإدارة ذلك المشروع ، وقد تكون هنالك اقطاعات بإدارة أناس يزيد عددهم على هذا العدد أو ينقص عنه .

وقد ذهب (رودوكناكس) Rhodokanakis الى احتمال وجود طبقة خاصة من الموظفين عرفت بـ (ابعل سير) ، كانت تحكم الى جانب الطبقة المثمنة المؤلفة من الأشخاص الثمانية[3] .

وظهر من النصوص القتبانية وجود جماعة من الموظفين نيطت بهم مهمة الإشراف على إدارة المعابد وتمشية شؤون الأوقاف المحبوسة على المعبد . يقال لها (اربى) ، والواحد هو (ربي) . ومهمته أيضاً جمع الأعشار والنذور التي تقدم الى المعابد[4] . فهم كهيئات (الأوقاف) في البلاد العربية والإسلامية في الوقت الحاضر .

وذكر علماء اللغة (المحاجر) ، وقالوا عنهم : إنهم أقيـــال اليمن ، وهم الاحماء، كان لكل واحد منهم حمى لا يرعاه غيره . وأن المحجر ما حول القرية[5]. ويظهر أنهم قصدوا بهم أصحاب الإحماء، أي الإقطاع ، الذين استقطعوا الأرضين واستخلصوها لأنفسهم ، ولم يسمحوا لأحد بالدخول اليها للرعي أو للاستفادة منها بغير اذن منهم.فهم أصحاب الإقطاع والإحماء . فحجروا بذلك على خيرة الأرضين المحيطة بالقرى ، وجعلوها خاصة بهم لا يرعاها غيرهم ، لما كان لهم من نفوذ وسلطان .

---

١ Handbuch I, S. 128.

٢ راجع النص الموسوم بـ : Halevy 147.
Rhodokanakis, Stud.. I, S. 56, Hartmann, Arab. Frage, S. 208, 401.

٣ Rhodokanakis, Stud., I, S. 57, Glaser 147.

٤ Grohmann, S. 214.

٥ اللسان (٤/١٧١) ، (حجر) ، تاج العروس (٣/١٢٦) ، (حجر) .

هذا ما عرفناه من أصول الحكم عند العرب الجنوبيين . أما بالنسبة الى العرب الشماليين ، فإن معارفنا بنظام الحكم عندهم نزر يسير ، لعدم ورود شيء ما عن نظام الحكم في (الحيرة) أو في مملكة الغساسنة في كتابة جاهلية . أما أخبار أهل الأخبار ، فإنها قليلة في هذا الموضوع،وهي لا تنص على نظم الحكم عندها نصاً ، وإنما تشير اليها إشارة ، وتومىء إيماءً ، ولذلك لا تقدم إلينا رأياً واضحاً صحيحاً في أصول الحكم عند العرب الشماليين .

ويظهر من أخبار الأخباريين عن ملوك الحيرة ان أولئك الملوك لم يكونوا مثل ملوك اليمن من حيث استشارة المجالس وتوزيع أعمال الحكومة . وطبيعي أن يكون هنالك فرق بين أصول الحكم في العربية الجنوبية ، وأصول الحكم في الحيرة ، لما بين طبيعتي الحكومتين من اختلاف في نواح عديدة ، تجعل وجود الإختلاف في نظم الحكم أمراً لا بد منه . فإدارة الحكم في (الحيرة) متأثرة بالنظم السياسية الساسانية ، وظروف البادية والبداوة وهي الغالبة على سواد التابعين لملوك الحيرة ، ولا يمكن تطبيق ما يطبق في المجتمع الحضري على المجتمع البدوي .

وإذا أخذنا (الردافة) على أنها منصب أو منزلة ودرجة خاصة في حكومة (الحيرة) ، فإننا نستطيع أن نقول إنها أسمى وظائف تلك الحكومة أو أسمى درجاتها، وأنها من المنازل العليا عند ملوكهم.فقد ذكر أهل الأخبار أن الردف هو الذي يجلس على يمين الملك . فإذا شرب الملك ، شرب الردف قبل الناس ، واذا غزا الملك ، قعد الردف في موضعه ، وكان خليفته على الناس حتى ينصرف ، واذا عادت كتيبة الملك ، أخذ الردف ربع الغنيمة[1] . وكان للردف أن يخلف الملك اذا قام عن مجلس الحكم ، فينظر بين الناس بعده . وذكر : ان هناك ردافة أخرى ، ولكنها دون الردافة المتقدمة ، وهي أن يردف الملك الردف على دابته في صيد أو غيره من مواضع الأنس ، ولكن الأولى أنبل[2] .

وقد عرف (عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب) بـ (رديف الملوك) ، ومعنى هذا انه عاش وخالط عدداً من ملوك أيامه،وذكر انه كان رحّالاً اليهم .

---

١ بلوغ الأرب (٢/١٨٤ وما بعدها) ، اللسان (٥/١٠٣) ، (صادر) ، (ر/د/ف) .

٢ الأغاني (١٤/٦٣) .

ولذلك عرف بـ (عروة الرحّال)[1] . وذكر ان (ردافة الملوك : كانت من العرب في بني عتاب بن هرمي بن رياح بن يربوع ، فورثها بنوهم كابراً عن كابر حتى قام الاسلام ، وهي أن يثنى بصاحبها في الشراب ، وإن غاب الملك خلفه في المجلس ، ويقال : إن أرداف الملوك في الجاهلية بمنزلة الوزراء في الاسلام ، والردافة كالوزارة . قال لبيد من قصيدة :

وشهدت أنجية الأفاقة عالياً كَعْبي وأرداف الملوك شهود)[2]

وكان (سدوس بن شيبان) رديفاً ، (فكانت له ردافة آكل المرار)[3] . وقد كانت الردافة معروفة عند (ملوك كندة) أيضاً . وقد رووا أن (أبا حنش عصم بن النعمان التغلبي) ، كان رديفاً للملك (شرحبيل بن الحارث بن عمرو الملك المقصور بن آكل المرار الكندي)[4] . وقد احتفظ (بنو سدوس) بهذا الحق : حق ردافة ملوك كندة[5] .

ولا يوجد نظام خاص في (الردافة) ، ولكن نظراً لما للردافة من مكانة ومنزلة ، جرت العادة ألا تعطى إلا للرجال الذين لهم مكانة عند الناس ولهم عقل وشخصية ، وقد تنتقل من الأب الى الابن ، وقد تنحصر في قبيلة واحدة ، فإذا أراد الملك نقلها الى قبيلة أخرى ، ولم يأخذ رأي تلك القبيلة في نقلها منها ، زعلت القبيلة وثارت إن كانت قوية ووقع الشر بينها وبين الملك ، أو بينها وبين القبيلة الأخرى التي نازعتها على الردافة .

وللرديف ، بحكم اتصاله بالملك وبقربه منه وبتقديمه الرأي له ، أثر في توجيه الملك وفي اتخاذه القرارات ، لا سيما إذا كان الملك ضعيفاً فاتر الهمة ، ليس له رأي . والرديف بهذا المعنى المستشار والوزير . وقد ذكر أن الردافة بهذا المعنى عرفت في الإسلام أيضاً . روي أن (عثمان) كان يُدعى (رديفاً) في إمارة عمر[6] .

وذكر علماء اللغة أن (الأرداف : الملوك في الجاهلية ، والاسم منه الردافة) .

---

١ البيان والتبيين (١/١٣٢) ، المحبر (٢٥٤) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨٤) .
٣ المعارف (ص ٤٥) .
٤ المحبر (ص ٢٠٤) .
٥ الاشتقاق (٢٦١) .
٦ الطبري (٣/٤٨٠) ، (ذكر ابتداء أمر القادسية) .

وكانت الردافة في الجاهلية لبني يربوع[1] . خصصها ملوك الحيرة بهم ولم يعطوها لأحد غيرهم ، حتى ان كانوا مثل بني يربوع من تميم . ولا بد وأن يكون لهذا التخصيص سبب إذ لا يعقل أن يكون جاء (بني يربوع) عفواً . فهو فضل وتفضيل ، وقضية التفضيل والتقديم ، قضية حساسة جداً ويحسب لها ألف حساب عند العرب . لما لها من مسٍّ بالمنازل وبكرامة القبائل والسادات ، وقد ذهبت أرواح بسبب تقديم ملك سيد قبيلة على سيد آخر في موضع جلوسه منه أن جعله أقرب اليه منه وفي جهته اليمنى لأن في هذا التقديم على عرفهم إيثار لمن قدم وتفضيل له على بقية الحضور . فهل يعقل إذن أن يكون ملوك الحيرة قد أعطوا (الردافة) لبني يربوع عفواً ومن غير أسباب حملتهم على تخصيصها فيهم . لقد حاول بعض ملوكهم تحويلها من أصحابها الى قوم آخرين ، ومنهم قوم مثل (بني يربوع) من تميم . لكنهم هاجوا وماجوا وهددوا ، فاضطر أولئك على إبقاء الحال على ما كان عليه .

ويمكن اعتبار (الحجابة) وصاحبها (الحاجب) من الدرجات المهمة في (الحيرة) . فقد كان (الحاجب) هو الذي يتولى إدخال الناس والاذن لهم بالدخول على الملوك . وكان في إمكانه التعجيل بإدخال من يريد على الملك ، وتأخير من ينفر منه من الدخول عليه ، وربما منعوه من الوصول اليه . لذلك كان الذين يقصدون الملوك يتقربون إليه ويتوددون له ليكون شفيعاً لهم عندهم وواسطة في التقرب اليهم . وطالما تعرض الحاجب لذم شاعر وهجائه ، إذا أخره عن الدخول على الملوك ، أو حال بينه وبين الوصول اليه ، أو كان سبباً في إثارة غضب الملك على الشاعر[2] .

وقد ذكر علماء اللغة انه لما كان الملك محجوباً عن الناس ، فلا يصلون اليه إلا بإذن من الحاجب ، لذلك حصر ، أي حبس عن رعيته ، فقيل له الحصير[3] .

وقد كان للنعمان بن المنذر (ملك العرب) حاجب ورد اسمه في شعر للنابغة ، هو (عصام بن شهر) من رجال (جرم) ، ذكر انه قد كانت له منزلة عند

---

١ اللسان (٥/١٠٣) ، (صادر) ، (ردف) .

٢ تاج العروس (١/٣٠٣) ، (حجب) .

٣ تاج العروس (٣/١٤٤) ، (حصر) .

النعمان . حتى انه اذا أراد أن يبعث بألف فارس بعث بعصام[1] ، مما يدل على انه كان يوكل اليه أمر قيادة جيشه أيضاً. وقد ضرب به المثل ، ورد : (ما وراءك يا عصام) ، يعنون به إياه . وورد : (كن عصامياً ولا تكن عظامياً يريدون به قوله :

نفس عصام سودت عصاما وصيّرته ملكاً هماما
وعلمته الكرّ والإقداما

وقوله ولا تكن عظامياً ، أي ممن يفتخر بالعظام النخرة)[2] .

وقد ورد في أخبار الرسل الذين أوفدهم رسول الله الى الملوك ، ان (شجاع ابن وهب) رسول رسول الله الى (الحارث بن أبي شمر الغساني) ليدعوه الى الاسلام ، اتصل بحاجبه ، وانتظر حتى جاء له الاذن بمقابلته فدخل عليه[3] .

وبقيت (الحجابة) من المنازل الرفيعة في مكة وفي الأماكن المقدسة الأخرى. فبيد (الحاجب) تكون مفاتيح الكعبة ومفاتيح الخزانة الخاصة بالمعبد وهي درجة ترزق صاحبها رزقاً حسناً وربحاً مادياً ، فضلاً عن الربح المعنوي باعتبار انه صاحب الصنم أو الأصنام وبيده أمر المعبد . لذلك قالت بنو قصيّ : فينا الحجابة[4] . تفتخر على غيرها . ويظهر من الحديث : « ثلاثٌ من كنّ فيه من الولاة اضطلع بأمانته وأمره : اذا عدل في حكمه ، ولم يحتجب دون غيره ، وأقام كتاب الله في القريب والبعيد »[5] ، ومن اشتراط (عمر) على كل من كان يعينه عاملاً ، ألا يتخذ حاجباً ، ومن تحذيره لمعاوية وغيره من اتخاذ الحجاب[6] . ان الحجاب، أي احتجاب الحكام في الجاهلية عن الناس وعدم دخول أحد عليهم بغير اذن منه ، كان معروفاً فاشياً ، وان أصحاب الحاجات والمراجعين من الناس كانوا يلاقون صعوبات جمة في الوصول الى حكامهم ، وقد يقفون اياماً ثم يسمح لهم بالدخول عليهم ، وقد لا يسمح لهم بذلك . ونظراً لما في ذلك من تعسف بحق

---

١ اشتقاق (٣١٨) .
٢ تاج العروس (٨/٣٩٩) ، (عصم)
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦١) .
٤ تاج العروس (١/٣٠٣) ، (حجب) .
٥ كتاب الحجاب من رسائل الجاحظ (٢/٣٠) .
٦ كتاب الحجاب من رسائل الجاحظ (٢/٣١) .

الرعية نهى الاسلام عنه ، وأمر الحكام بوجوب فتح أبواب بيوتهم للناس ليستمعوا الى ظلاماتهم والى ما هم عليه من حال .

وفي كتب أهل الأخبار تأييد لهذا الرأي،إذ نجدها تذكر ان الشعراء وغيرهم كانوا يقفون اياماً بأبواب ملوك الحيرة أو الغساسنة يلتمسون الاذن بالدخول على الملوك ، ولا يأذن الحاجب لهم بالدخول عليهم ، حتى اضطر البعض منهم على التعهد للحاجب بإعطائه نصيباً مما سيعطيه الملك له إن يسّر له أمر الدخول عليه[1]. ومنهم من كان يقدم للحاجب هدية ترضيه حتى يسمح له بالدخول دون إبطاء ، مما اضطر بعض الشعراء على نظم الأشعار في هجاء الحاجب والملك الـذي يراد الوصول اليه . ونجد مثل هذه الشكاوي عن حجاب ملوك اليمن .

ويظهر ان ملوك الحيرة كانوا يستوزرون الوزراء ليستشيروهم في الأمور ، فقد ورد ان (زرارة بن عدس) كان من عمرو بن هند كالوزير له[2]. وقد وردت كلمة (وزير) في القرآن الكريم[3] بمعنى المؤازر الذي يشد أزر صاحبه فيحمل عنه ما حمله من الأثقال ، والذي يلتجيء الأمير الى رأيه وتدبيره ، فهو ملجأ له ومفزع . وجاء في حديث (السقيفة) : « نحن الأمراء وأنتم الوزراء »[4] ، مما يدل على ان الوزارة كانت معروفة عند الجاهليين .

وورد أن (التأمور) وزير الملك لنفوذ أمره[5] . ولم يذكر علماء اللغة الموضع الذي استعملت فيه هذه اللفظة .

وقد كان للملوك الحيرة عُمّالاً يديرون بالنيابة عنهم أمور الأرضين التابعة لهم . فـ (العامل) هو نائب الملك على تلك الأرض. وقد ذكر أنه كان لملوك الحيرة (عمال) على البحرين كالذي رووه في قصة مقتل الشاعر (عبيد بن الأبرص) . وقد عرف علماء اللغة العامل بأنه هو الذي يتولى أمور الرجل في ماله وملكه وعمله ومنه قيل للذي يستخرج الزكاة (عامل) ، وللساعي الذي يستخرج الصدقات من أربابها (العامل) والعامل هو الخليفة عن الشخص[6] .

---

١ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٥٩ وما بعدها) .
٢ العمدة (٢/٢١٦) ، (محمد محيي الدين) .
٣ سورة طه ، الآية ٢٩ ، الفرقان ، الآية ٣٥ .
٤ اللسان (٥/٢٨٣) ، (صادر) ، (وزر) .
٥ تاج العروس (٣/٢٠) ، (أمر) .
٦ اللسان (١١/٤٧٤) ، (عمل) .

وقد استعمل المسلمون لفظة (العامل) وبقوا يستعملونها أمداً . وعين الرسول عُمالاً على الصدقات[1] . واستعملت بمعنى أوسع أيضاً ، شمل الضرائب والإدارة . وأطلق (الطبري) لفظة (العامل) على ملوك الحيرة ، فنجد في كتابه جملة : (من عمال ..) ، وورد أن (امرأ القيس) كان عاملاً للفرس ، وكان يحكم الحجاز[2] .

ويذكر علماء اللغة أن (العُمالة) : رزق العامل الذي جعل له على ما قلد من العمل .

والولاية بمنزلة الإمارة ، والولي هو الذي يتولى إدارة شؤون الولاية[3] . وقد استعملت في الإدارة الإسلامية . واستعملت لفظة (الأمير) في معنى من يتولى إمارة الجيش ، فقيل (امراء الجيش) وهم كبار القادة الذين توكل اليهم مهمة تسيير الجيش وإدارته في السلم وفي الحرب .

وتؤدي لفظه (الوكيل) معنى العامل أيضاً . جاء في نص (العمارة) (ووكلهن فرسولروم) ، أي (ووكل لفارس وللروم)[4] . ولكنني لا أستطيع أن أجزم بأن لفظة (الوكيل) كانت مستعملة اصطلاحاً مقرراً مثل لفظة (عامل) في ذلك العهد ، أي سنة (٣٢٨) للميلاد ، وهي سنة تدوين النص .

ومن الدرجات المهمة من الوجهة العسكرية والإدارية (الخفارة) ، بمعنى الحراسة والمراقبة . والخفير هو المجير والحارس والحامي والأمان[5] . وكان ملوك الحيرة قد عينوا (الخفراء) على المواضع الحساسة لحمايتها والدفاع عنها . وقد كان الساسانيون قد عينوا خفراء منهم ومن العرب لحماية الحدود ، ولما حاصر (خالد بن الوليد) (عين التمر) وتغلب عليها قتل (هلال بن عقبة) ، وكان خفيراً بها[6] .

---

١ تاج العروس ، (٣٧/٨) ، (ومنه قيل للذي يستخرج الزكاة عامل) .
Die Araber, II, S. 318, 321, /56, Annali, I, 833.

٢ اللسان (٤٧٦/١١) (عمل) ، (صادر) .

٣ اللسان (٤٠٧/١٥) ، (ولي) .

٤ J. Cantineau, Le Nabatéen, 2, (1932), 49, Dussaud, Mission, 314, REP. EPIGR., I, 361, NR. 483, Die Araber, II, S. 313.
أشكر المكتبة القادرية ومتولي الوقف القادري السيد يوسف الكيلاني ، على تفضلهما باعارتي الجزء الثاني من كتاب : Die Araber

٥ تاج العروس (١٨٦/٣) ، (خفر) .

٦ الأخبار الطوال (١١٢) .

وقد أشير اليها في كتب الرسول ، إذ ذكر أنه أخفر (سعير بن العداء الفريعي) أحد المواضع[1] .

ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن ملوك الحيرة ، كانوا قد اتخذوا لهم أمناء ، فقد لقب (هانيء بن قبيصة) بـ (أمين النعمان بن المنذر)[2] . و (الأمين) المؤتمن الحافظ ، فلعلهم قصدوا أنه كان المؤتمن على أسراره والمستشار له ، يستشيره في مسائله والحافظ لها،أو أنه كان الأمين على أمواله وما يأتيه من جباية وخراج ، أو الكاتم لأسراره والمدوّن لرسائله،فهو كاتب الدولة في ذلك العهد .

وعرف (قبيصة بن مسعود) بـ (وافد المنذر)[3] . ويظهر أن المنذر كان يكلفه بالوفادات ، أي بالذهاب موفداً عنه في مهمات وأعمال يحتاج قضاؤها الى ذهاب موفد ليتكلم عن الملك وباسمه . و (الوافد) هو السابق والارسال،ويقال: هم على أوفاد أي على سفر . وقد يقال إن (قبيصة) إنما عرف بـ (وافد المنذر) ، لأنه كان ممن يكثر الوفادة عليه ، فيجد له ترحيباً وأبواباً مفتوحة ، فعرف بذلك . فيكون بهذا المعنى من الرجال المقربين الى الملك . ولا علاقة له بمهمة الايفاد الى الملوك وسادات القبائل بمهمات سياسية،أي بمهمة رسول وسفير .

وقد استعمل عرب العراق الألفاظ الفارسية المستعملة في ادارة الحكومة الساسانية لأنها هي المصطلحات الرسمية والألقاب التي يحملها الموظفون وتشير الى منازلهم ودرجاتهم ، ومنها درجة (قهرمان) (القهرمان) . والكلمة فارسية،وقد دخلت العربية وعُرِّبت . ذكر علماء اللغة انها تعني المسيطر الحفيظ على من تحت يديه والقائم بأمور الرجل ومن أمناء الملك وخاصته . وفي الحديث: كتب الى قهرمانه[4] . وقد ورد ان (علي بن أبي طالب) قال لدهقان من أهل (عين التمر) ، وكان قد أسلم : « أما جزية رأسك فسنرفعها ، وأما أرضك فللمسلمين . فإن شئت فرضنا لك ، وإن شئت جعلناك قهرماناً لنا »[5] .

و (دهقان) من الألفاظ التي عرفها عرب العراق كذلك . وذكر بعض علماء

---

١ الاصابة (٢/٥١) ، (رقم ٣٢٠٠) .
٢ العمدة ، لابن رشيق (٢/٢٢١) ، (مفاخرة عند معاوية بين عامري وشيباني) .
٣ العمدة ، لابن رشيق (٢/٢٢٢) .
٤ اللسان (١٢/٤٩٦) ، (صادر) ، (قهرم) .
٥ الجزية والاسلام ، تأليف دانيل دينيت تعريب الدكتور فوزي فهيم جاد الله (ص ٦٦) .

اللغة ان الدهقان التاجر[1] . ويراد بدهقان حاكم ضيعة أو بلدة . وهي من (ده) بمعنى (ضيعة) و (قان) (خان) بمعنى رئيس قبيلة في الفارسية القديمة[2] . فالدهقان هو رئيس موضع . وقد كان الساسانيون قد نصبوا الدهاقين على العراق وعلى قرى غالب أهلها من العرب ، فكانوا يخاطبونهم باسم منصبهم : دهقان .

وأشير الى وجود وظيفة (كاتب) عند الفرس ، واجبه تولي أمور المراسلة بالعربية والفارسية فيما بين العرب والفرس . وقد ذكر (الطبري) ان (كسرى) جعل ابن (عدي بن زيد العبادي) في مكان أبيه،(فكان هو الذي يلي ما كتب به الى أرض العرب ، وخاصة الملك ، وكانت له من العرب وظيفة موظفة في كل سنة : مهران أشقران والكمأة الرطبة في حينها واليابسة ، والأقسط والأدم وسائر تجارات العرب ، فكان زيد بن عدي بن زيد يلي ذلك ، وكان هذا عمل عدي)[3] . وقد أشير الى وجود كتاب عند ملوك الحيرة تولوا لهم أمر تدوين المراسلات وما يأمر به الملوك . ولا يعقل ألا يكون لهم ديوان خاص بالمراسلة على نمط ما كان عند الساسانيين ، وظيفته تولي ما يكتب به ملوك الحيرة الى الملوك الساسانيين ، وترجمة ما يرد من الساسانيين اليهم من كتب . وتولي أمور المراسلة بين ملوك الحيرة وبين سادات القبائل . فقد كانت الرسائل تترى بين أولئك الملوك وسادات القبائل ، كما يظهر ذلك من كتب أهل الأخبار .

وكان للملوك خاتم عرف بـ (خاتم الملك) يكون في أيديهم . يظهر أنهم استخدموه للتوقيع على الكتب . وقد عرف بـ (الحِلق) كذلك . وعرف (الحلق) بـ (خاتم الملك الذي يكون في يده)[4] . وكان من شأنهم ، أنهم إذا أمروا بكتابة كتاب ، ختموا عليه بـ (الختام) ، وهو الطين أو الشمع ، حتى لا يفتح ولا يمكن لأحد فتحه ، وإلا كسر الخاتم ، وعرف أن الكتاب قد فتح ، وأن سره عرف[5] .

والمعروف أن (الشرطة) ، لم تكن معروفة عند الجاهليين،وأنها من المستحدثات

---

١ اللسان (د/ هـ/ ق) ، (١٣/١٦٤) ، (١٠/١٠٧) ، (صادر) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
٣ الطبري (٢/٢٠١) ، (ذكر خبر يوم ذي قار) .
٤ وأعطى منا الحلق أبيض ماجد رديف ملوك ما تغب نوافله
تاج العروس (٦/٣٢١) ، (حلق) .
٥ تاج العروس (٨/٣٦٦) ، (ختم) .

الإدارية الـتي ظهرت في الإسلام . ولكن أهل الأخبار يروون حديثاً نسبوه الى الرسول هـو : (الشرط كلاب النار)[1] . وهو حديث لو صح أنه من قول الرسول ، فإنه يدل على وقوف أهل الحجاز على (الشرطة) ، ويذكر علماء اللغة أن الشرطة سمّوا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بهـا . وذكروا أن واحد الشرط هو الشرطي ، واستدلوا على ذلك بقول الدهناء امرأة العجاج :

والله لولا خشيـة الأمير وخشية الشرطي والترتور
أعـوذ بالله وبالأمـير من عامل الشرطة والأترور[2]

وقد ذهب (ابن قتيبة) الى وجود (الشرطة) في أيام الجاهلية ، إذ قـال في أثناء حديثه عن المثل (على يدي عدل) : (هو : عدل بن فلان . مـن سعد العشيرة ، وكان على شرطة تبع ، فإذا غضب على رجل دفعه اليه . فقـال الناسُ لكل شيء يخاف هلاكه . هو على يدي عدل)[3].واختلف في اسم والده ، فقيل هو جزء (جر) . وقيل لكل ما يئس منه : وضع على يدي عدل[4] .

وقد عرف الحراس في اليمن . منهم من كان يتولى أمر حراسة الملوك ، إذا ذهبوا الى مكان ، أو خرجوا لصيد،ومنهم من كان يتولى أمر حراسة قصورهم، ومنهم من تولى أمر حراسة أبواب المدن والأسوار حتى لا يدخل المدينة عدوٌ ولا يهرب منها سارق أو مجرم ، وكان للملوك الحيرة والغساسنة وسادات القبائل حراس يسيرون معهم لمنع من يريد إلحـاق الأذى بهـم . واذا تجولوا استتبعهم الحراس والخدم . وذكر ان (خشرم بن الحبّاب) كان من حراس الرسول[5] .

ويقال لمن يطوف بالليل لحراسة الناس (العس) و (العسس) . فهم نوع من أنواع الحرس ، تخصص بالحراسة ليلاً .

وأما (الدرابنة) ، فهم البوّابون ، أي الذين يقفون على الباب، لمنع الغرباء ومن فيه ريبة من الدخول الى البيوت . واللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية،

---

١ تاج العروس (١٦٧/٥) ، (شرط) .
٢ تاج العروس (١٦٧/٥) ، (شرط) .
٣ ابن قتيبة ، المعارف (٦١٩) .
٤ تاج العروس (١٠/٨) ، (عدل) .
٥ القسطلاني ، ارشاد (٣٩٩/٢) ، الاشتقاق (٢٧٣) .

وقد ذكرت في شعر نسب الى المثقب العبدي :

فأبقى باطلي والجدّ منها كدكان الدرابنة المطين[1]

ويقال لمن يطوف بالليل لحراسة الناس (العس) و (العسس) ، فهم نوع من أنواع الشرطة ، أو من المحافظين على الأمن ، تخصصوا بالحراسة ليلاً .

وذكر علماء اللغة ان من مرادفات (الشرطي) (الجلواز) . و (الجلواز): الثؤرور (التؤرور) ، وقيل هو الشرطي . وجلوزته : خفته بين يدي العامل في ذهابه وإيابه[2] . وذكروا ان (التؤرور : العَوْن يكون مع السلطان بلا رزق ، وقيل : هو الجلواز)[3] . وذكر (عكرمة) في تفسير (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) . (الجلاوزة يحفظون الأمراء)[4] .

وقد اتخذ حكام العربية الجنوبية السجون لتأديب خصومهم بسجنهم بها. واستعملت لسجن الخصوم السياسيين والأعداء في الغالب . لذلك كانوا يتشددون في حراستها وفي عزلها عن الناس حتى لا يتمكن أحد من الهروب منهـا . وقد يجعلونها في قلاعهم وحصونهم ، زيادة في الحذر وفي مراقبة المساجين . وقد يتوفى السجين في سجنه من سوء حالة السجن ومن الجوع والعطش. ويقال لحارس السجن (حصق) في اللغة العربية الجنوبية[5] .

وذكر بعض علماء اللغة ان النبط تسمي (المحبوس) : (المهزرق) ، و (الحبس) (الهزروقي)[6] . ولا يستبعد أن يكون عرب العراق قد عرفوا هـذا المصطلح . إذ ذكروا ان (المهرزق : المحبوس،نبطية تكلمت بها العرب،وكذلك المحرزق) . وان (الهرزق) (الحبس) . وقال بعض العلماء : «المهزرق والمهرزق يقالان معاً . كما وردا في بيت الأعشى :

هنالك ما أنجاه عزة ملكه بساباط حتى مات وهو مهرزق»[7]

---

١ تاج العروس (١/٢٤٩) ، (٩/١٩٩) ، (الدرابنة) .
٢ اللسان (٥/٣٢٢) ، (جلز) ، تاج العروس (٤/١٦) ، (جلز) .
٣ تالله لولا خشيـة الأمير وخشيـة الشرطي والتـؤرور
(التؤرور) و (النؤرور) ، اللسان (٤/٨٨) .
٤ الدينوري ، عيون الأخبار (١/٣) .
٥ راجع الصفحة (٤٣٦) من كتاب : South Arabian Inscriptions
٦ تاج العروس (٦/٣١٣) ، (حزرق) ، (٧/٩٦) ، (هزروقي) ، (هزرق) .
٧ تاج العروس (٧/٩٦) ، (هرزوقي) ، (هزرق) .

وترد لفظة (عوق) بمعنى المحبوس في النصوص الصفوية[1] . وقد كان الروم يقبضون على من يغير على أرضهم من الصفويين وغيرهـــم ويودعونهم السجون . ومنهم من كان يفر منها ، ويكتب ذكرى هروبه من سجن الروم على الحجارة.

وقد كان لملوك الحيرة (سجون) ، منها سجن (الصنّين) وقد أشير اليـــه في الشعر الجاهلي[2] . ولا بد أن يكون لهم موظفون أودعوا اليهم مهمة المحافظـــة على السجون ومراقبة المساجين حتى لا يهربوا ، ووكلوا اليهم أمر تعذيبهم وقتلهم أو سمهم عند صدور أمر الملك بذلك . كما فعلوا بعديّ بن زيد العباديّ . ويقال للسجن : الحصير ، لأنه يحصر الناس ويمنعهم من الخروج[3] ، و (الحبس)[4] .

ويقال للذي يتولى أمر القبيلة أو الجماعة من الناس يلي أمورهم ، وينقـــل الى الملك أحوال الناس (العريف) . وكان للملوك (عرفاء) ، هم بمثابة عيونهم على القبائل . ويظهر من بعض الأخبار أن العرافة كانت نوعاً من الرئاسة والزعامة والدرجة . فقد ورد في كتب الحديث : أن شيخاً كان صاحب ماء جعل لقومه مئة من الإبل على أن يسلموا،فأسلموا ، وقسم الإبل بينهم . وبدا له أن يرتجعها منهم ، فأرسل ابنه الى النبي ، وأوصاه بأن يقول له : « أبـي شيخ كبـير ، وهو عريف الماء ، وإنه يسألك أن تجعل لي العرافة بعده » . فلما قص الخبر على الرسول ، قال الرسول له : « إن بدا له أن يسلمها اليهم ، فليسلمهـا ، وإن بدا له أن يرتجعها منهم ، فهو أحق بها منهم . فإن أسلموا ، فلهم إسلامهم ، وإن لم يسلمو ، قوتلوا على الإسلام » . فقال : « إن أبـي شيخ كبير ، وهو عريف الماء ، وإنه يسألك أن تجعل لي العرافة بعده » . فقـال الرسول : « إن العرافة حق ، ولا بد للناس من عرفاء . ولكن العرفاء في النار »[5] .

وورد أن العريف:النقيب ، وهو دون الرئيس ، وان عريف القوم سيّدهم، والعريف : القيم والسيد لمعرفته بسياسة القـــوم ، ولتدبيره أمر تابعيـــه . وعرفوا (النقيب) بهذا التعريف أيضاً[6] ، فقالوا إنه العريف ، وهو شاهد القوم وضمينهم

---

١ Littmann, Safa., p. 42.
٢ تاج العروس (٩/٢٦١) ، (صن) .
٣ تاج العروس (٣/١٤٤) ، (حصر) .
٤ اللسان (٦/٤٤) ، (حبس) .
٥ اللسان (٩/٢٣٨) ، بلوغ الأرب (٢/١٨٦) .
٦ اللسان (ع/ر/ف) ، (٩/٢٣٨) .

والمقدم عليهم الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم[1] .

و (العريف) من المصطلحات العسكرية أيضاً ، المستعملة في تنظيمات الجيش . وقد أقر الرسول ما كان متبعاً من أمر تقسيم الجيش الى وحدات . فعرّف على كل عشرة رجلاً وأمّر على الأعشار رجالاً من الناس لهم وسائل في الإسلام . هم العرفاء[2] .

و (النقيب) ، شاهد القوم ، وهو ضمينهم وعريفهم ورأسهم ، لأنه يفتش أحوالهم ويعرفها . وفي التنزيل : « وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً »[3] . ولما بايع الأنصار رسول الله ، جعل عليهم اثني عشر نقيباً ، ليتولوا أمر المسلمين بيثرب وليكونوا شهوده عليهم ، وليقوموا بالدعوة فيها الى الاسلام . ويظهر ان لهذه اللفظة صلة بلفظة Nacebus التي وردت في بعض المؤلفات اليونانية في حديثها عن العرب . ونجد في العهد المنسوب الى (خالد بن الوليد) المعطى الى أهل الحيرة والمدون في تأريخ الطبري ، جملة : (وهم نقباء أهل الحيرة)، وقصد الشارح بها رؤساء الحيرة الذين صالحوا (خالد) على أداء الجزية ، وهم : عديّ وعمرو أبناء عدي بن زيد العبادي ، وعمرو بن عبد المسيح ، واياس بن قبيصة وحيريّ (جبريّ) بن آكال[4] .

وفي ورود اللفظة في القرآن الكريم ، واختيار الرسول لنقباء أمرهم على مسلمي يثرب قبل هجرته اليها ، وفي ورودها في عهد (خالد) مع أهل الحيرة ، دلالة على انها كانت شائعة معروفة في الحجاز ، بمعنى رئيس وسيد قوم والمسؤول عن جماعة .

أما (الرائد) ، فهو الذي يتقدم الناس لطلب الماء والكلأ للنزول عليه[5] . وقد نصب (عمر) (سلمان الفارسي) رائداً وداعية على الجيش الذي أرسله الى العراق[6] .

---

١ اللسان (ن/ق/ب) ، (١/٧٦٩) .
٢ الطبري (٣/٤٨٨) .
٣ المائدة ، سورة رقم ٥ ، الآية ١٢ ، تاج العروس (١ : ٤٩٢) ، (نقب) .
٤ تاريخ الطبري (٣/٣٦٣ وما بعدها) ، (حديث يوم المقر وقم فرات بادقلى) .
٥ بلوغ الأرب (٢/١٨٥) ، تاج العروس (٢/٣٥٩) ، (راد) .
٦ الطبري (٣/٤٨٩) .

ولا بد وان يكون للملوك خزان يتولون خزن أموال الملك والاشراف على مدخولاته ومصروفاته . وكلمة (خزانة) من الألفاظ المعروفة في العربية [1] . وقد كان الناس يخزنون أموالهم في خزائن . ومنها أوعية يجمعون فيها المال المخزون .

وقد كان لهؤلاء الملوك جباة يجبون لهم حقوق الملك على الرعية ، من أعشار التجارة ، ومن غلات الأرض .

وهناك طبقة من السادة كانت لهم منزلة ومكانة في أهلهم ودرجة محترمة عند الملوك ، فقربوهم اليهم وأدنوهم منهم . وقد عرفوا بـ (قرابين الملك) واحدهم قربان . يجلسون مع الملك على سريره لنفاستهم وجلالتهم [2] . وذكر ان (القربان): جليس الملك الخاص ، أي المختص به . و (قرابين الملك) وزراؤه وجلساؤه وخاصته [3] .

وقد عرفنا من كتابات (تدمر) أسماء بعض الوظائف التي كان يتولاها الموظفون في القيام بإدارة الأعمال العامة للمدينة . وقد أشرت اليها في حديثي عن تلك المدينة ، وكانت (تدمر) قد سارت على خطة المدن اليونانية في ادارة شؤونها ، وهي خطة عمل بها الرومان أيضاً مع بعض التغيير الذي يناسب جو (الانبراطورية) الرومانية . ويلاحظ ان أهل (تدمر) استعملوا المصطلحات اليونانية أيضاً في تسمية الوظائف .

ويمكن أن نقول إن عرب بلاد الشأم كانوا قد ساروا على وفق النظم اليونانية – الرومانية في إدارة الحكم ، لوجود جاليات يونانية كبيرة العدد من مدن الشأم وقراها ، ولاتصال عرب هذه الديار باليونان والرومان ، مما جعلهم يختارون نظم اليونان والرومان في إدارة الحكم وفي إدارة الجيش ، ونجد أثر هذا التأثر حتى في لغة أهل الحجاز ، فنجد فيها ألفاظاً عديدة دخلت العربية قبل الإسلام بزمن طويل ، فعربت . وذلك في الأمور التي اختص بها اليونان والرومان ولم تكن معروفة عند العرب .

بطانة الملك :

والبطانة السريرة يسرها الرجل ، والصاحب للسرّ الذي يشاور في الأحوال .

---

١ تاج العروس (٩/١٩١) ، (خزن) .
٢ اللسان (٥/١٠٣) ، (صادر) ، (ردف) .
٣ تاج العروس ، (قرب) .

وقد أشير اليها في الحديث . ويقال لها الوليجة ،وهو الذي يختص بالولوج والاطلاع على باطن الأمر . وذكرت (البطانة) في القرآن . بمعنى مختصين بقوم،ويستبطن بهم الأمور[1] . فهم النخبة الخاصة التي يركن اليها في السرّاء والضرّاء وفي أخذ الرأي .

ولـ « سقاة » الملوك حظوة عند الملوك بحكم قربهم منهم واتصالهم بهم، ولا سيما وقت شرابهم ، ويسمعون من أفواههم وبخاصة في أوقات الشراب أموراً لا يبيحون بهـا في وقت صحوهم وشعورهم . وقد كانت (السقاية) منزلة رسمية كبيرة عنـد الفرس والآشوريين والعبرانيين[2] . وقد استعمل اللخميون والغساسنة السقاة ، لإسقائهم الشراب ولإسقاء ضيوفهم أيضاً .

ولا يستبعد وجود (الخصيان) في قصور الملوك والأشراف . فقد كان من عادة الناس في ذلك الوقت استخدامهم في البيوت . فكانوا يدخلون على مخدرات الملـوك والسادات ، ويتصلون بهن ، لخدمة البيت . ولهذا لجأ الملوك الى شراء الخصيان، أو اخصاء مماليكهم حتى يكونوا بمأمن من اتصالهم بالقصر ودخولهم على نسائهم .

ادارة المملكة :

لا نستطيع أن نتكلم بوجه صحيح مضبوط عن كيفية إدارة المملكة عند الجاهليين وعن طرق توزيع الأعمال وتقسيم المملكة الى وحدات إدارية يديرها الموظفون ، وعن أسماء تلك الوحدات . إذ لم يصل أي شيء عن ذلك الينا في كتابات المسند او الكتابات الجاهلية الأخرى . كما لم يصل الينا أي شيء عن النظم الإدارية الجاهلية في كتب أهل الأخبار والتواريخ .

وفي كتب اللغـة والأدب مصطلحات ذات معان إدارية مثـل (الطسوج) و (الكور) وردت فيها عرضاً ، غير أن ما أورده علماء اللغة عنها لا يبين لنا بوضوح استعمالها ولا الأزمنة التي استعملت فيها ، ولا المراد منها . فهم يقولون

---

١ تاج العروس (٩/١٤١) ، (بطن) .
٢ Hastings, p. 271. Hastings, A Dictionary of the Bible, I. p. 533.

عن (الطسوج) ، الطسوج : الناحية وربع الدانق . وقيل مقـدار من الوزن ، وقيل معرب واحد من طساسيج السواد . فنحن إذن أمام معان ثلاثة : هي جزء من دانق أو درهم ، ومقدار من الوزن وجزء من أرض[1] . والمعنى الثالث هو المعنى الملائم لبحثنا ، لأنه يدل على وحدة إدارية ، كانت مستعملـة في العراق بتأثير الحكم الفارسي .

وأما (الكور) فجمع (كورة) . قـال علماء اللغة انها المدينة والصقع ، والمخلاف . وهي القرية من قرى اليمن[2] والكلمة من أصل يوناني،هو (خورة) Khora . بمعنى ناحية من بلد ، أي مصر . ولم يشر علماء اللغة الى انها كانت مستعملة في جزيرة العرب . ولعل العربية أخذتها من التقسيمات الإدارية لبلاد الشأم .

وجاء في أثناء حديث (الطبري) عن فتح (أمغيشيا) وعن سير خـالد بن الوليد اليها ، أنهـا كانت مصراً كالحيرة[3] . وورد في كتب اللغة والأخبار أن (عمر) كان قد مصر الأمصار منها البصرة والكوفة . وذكر علماء اللغة أن المصر الحد[4] . ويظهر من ذلك أن (أمغيشيا) كانت مصراً ، أي من إمارات الحدود، التي أقيمت عـلى الحدود المغربية للدولة الساسانية لحمايتها من الروم ومن غارات الأعراب وغزوهم . وكان أهلها على النصرانية . وان لفظة (مصر) كانت تؤدي هذا المعنى عند ظهور الإسلام .

ولا تظهر التقسيمات الإدارية إلاّ في حكومة كبيرة تحكم مساحة واسعة نوعاً ما . لذا نستطيع أن نتحدث باطمئنان عن وجود تقسيمات ادارية في العربية الجنوبية، لأن حكوماتها كانت قد حكمت أرضين متسعة نوعاً ما ، وجعلت البلاد في حـكم موظفين تولوا ادارتها . وقسموها الى وحدات ادارية . أما في الحجاز ، فلما كان الغالب عليها عند ظهور الإسلام نظام حكم القرى والمدن ، لذلك ، فلا يمكن أن نجد فيه شيئاً من هذا التقسيم . وأما ملوك الحيرة ، فقد عينوا عمالاً على الأقاليم التي حكموها.ولكن أهل الأخبار لم يذكروا شيئاً عن أنواع العمالات وعن درجات حكامها . لذلك لا نستطيع التحدث عنها بشيء .

---

١ تاج العروس (٢/ ٧٠) ، (الطسوج) .
٢ اللسان (٥/ ١٥٦) ، (كور) .
٣ تاريخ الطبري (٣/ ٣٥٨) ، (حديث أمغيشيا) ، (مغش) (أمغيشـا) ، تـاج العروس ٤/ ٣٥١) ، (مغش) .
٤ تاج العروس (٣/ ٥٤٤) ، (مصر) .

ولقد سبق لي أن ذكرت أسماء بعض الوظائف والمناصب في الممالك العربية الجنوبية. فقلت مثلاً إن درجة (كبر) أي (كبير) هي من المناصب العالية عند العرب الجنوبيين ، و (الكبر) هو في مقام (محافظ) و (متصرف) و (عامل) في مصطلحات الدول العربية في يومنا هذا . ولا أستبعد أن تكون تلك الدول قد أطلقت لفظة (كبر) على الوحدة الادارية التي كانت تحت حكم الكبير .

و (المخلاف) ، هي الكلمة التي ترد في كتب علماء اللغة والأخبار عن التقسيمات الادارية الجغرافية لليمن ، إذ يذكرون ان (المخلاف) مثل (الكورة) بالنسبة لأهل اليمن ، وان اليمن كانت مقسمة الى مخاليف[1] .

ويعبر عن القرى بالأعراض ، والواحد عرض . جاء في بعض كتب عبد الملك بن مروان لعماله : « وليتك المدينة وأعراضها » ، أي قراها ونواحيها[2] . وللقرى والمدن حدود ومعالم . خارجها ضاحيتها . وأما داخلها فجوفها ، وهو من شعاب ، ومن (ربعات) . والربع و (الربعة) المحلة والشعب وجماعة الناس[3] . وقد أشير الى (الرباع) في الكتاب الذي أمر الرسول بتدوينه بين (قريش) وأهل يثرب .

ويظهر ان الجاهليين قد عرفوا لفظة (الدسكرة) ، بدليل ورودها في الحديث . وقد ذكر بعض علماء اللغة انها بناء كالقصر حوله بيوت ومنازل للخدم والحشم . وخصصه بعضهم بالملوك . وقال قوم : القرية[4] . ويظهر انهم أخذوها من الفارسية، فهي فيها مدينة وضيعة كبيرة .

و (الضواحي) النواحي ، وضواحي الروم ما ظهر من بلادهم . وضواحي مدينة أو قرية،ما كان خارج السور أو خارج حدود المدينة أو القرية . وضواحي قريش ، النازلون بظواهر مكة ، ولذلك قيل لقريش النازلة بظواهر مكة، قريش الظواهر . وأهل الضاحية ، أو أهل الضواحي ، هم أهل البادية ، والساكنون على سيف الحضارة وحدودها[5] . وكانت الحكومات تحسب لهم حساباً ، وتراقب أحوالهم ، خشية مهاجمتهم الحضر .

---

١ اللسان (٥/١٥٦) ، (خلف) .
٢ شرح ديوان لبيد (ص ٩٢) .
٣ تاج العروس (٥/٣٣٨) ، (ربع) .
٤ تاج العروس (٣/٢٠٧) ، (دسكرة) .
٥ تاج العروس (١٠/٢١٧ وما بعدها) ، (ضحى) ، اللسان (١٤/٤٨١) ، (ضحى) .

موارد الدولة :

ولا بد لكل دولة من موارد تستعين بها في ادارة امورها وفي الانفاق على التابعين لها المكلفين القيام بأعمالها من موظفين ومستخدمين مدنيين وعسكريين ويدخل في هذه الموارد كل ما يحصل عليه الملك أو سيد القبيلة من أرباح ودخل يرد من استغلال الأرض والأملاك الخاصة ، ومن الاتجار ، ومن الضرائب التي تفرض على التجار والمواطنين والزرّاع ، ومن الغنائم ، الى غير ذلك من واردات تجمع وتقدم الى الحكام ملوكاً كانوا أو سادات قبائل أو رؤساء مدن . أضف الى ذلك (الجزية) التي كانت الحكومات تفرضها على من تحاربه أو تغزوه فتنتصر عليه، ثم تنسحب من أرضه على ان يدفع (جزية) يقررها المنتصر تتناسب مع حال المغلوب .

ولم يكن من المعتاد في تلك الأيام التفريق بين (الخزينة الخاصة) و (الخزينة العامة) ، او بين الوارد الخاص بالملك ، مما يجبى عن أملاكه وعن اتجاره وبين الوارد الذي يجب ان يصرف وينفق على الأعمال العامة التي تمس الشعب كله ، مثل انشاء الطرق والحصون وادامة الجيش واغاثة المحتاج وما شابه ذلك ، فإن الحاكم في ذلك الزمن كان يرى ان كل ما يجبى يعود اليه ، لا فرق عنده بين الخزينة الخاصة والخزينة العامة ، وان الانفاق يتوقف على رأيه ، إن شاء وهب هذا مالاً وأقطع هذا ارضاً ، وان شاء صادر مال شخص وضمه اليه ، ولا حق لأحد ان يعترض عليه . فأموال الدولة هي امواله والخزينة هي خزينته،وهو الذي يأمر بالإنفاق . وما يعطيه للشعراء ثواباً على مدحهم له ، او ما يقدمه من أموال للمنافع العامة وللنفقات الخاصة بالجيش وبمرافق الدولة،يكون كله بأمره وبموافقته ، يتصرف كما يتصرف اي مالك كان بملكه .

وقد اختار الملوك لهم رجالاً وكلوا لهم امر ادارة أملاكهم واستثمارها ، كما وكلوا لآخرين أمر الاتجار بأموالهم ، إذ كان الملوك يتاجرون ايضاً في الداخل وفي الخارج ، كما وكلوا للموظفين امر جباية الضرائب واستحصالها من الزرّاع ومن التجار، فكانوا يذهبون الى المزارع لتقدير حصص الحكومة كما كانوا يتفقون في الأسواق لأخذ العشر من المبيعات . وهناك موظفون يقيمون عند الحدود وعند ملتقى الطرق لأخذ حق المرور من القوافل .

وقد وجدت بعض الحكومات مثل حكومة (رومة) ان طريقة تعيين الجباة لجباية الضرائب ، هي طريقة تكلف الدولة اموالاً تزيد على الأموال التي تردها من الجباية ، لأن الجباة كانوا يسرقون اموال الجباية ، ويسيئون الاستعمال ، وان الشدة معهم لم تنفع شيئاً ، لذلك عمدت الى وضع الجباية في (المزايدة العلنية) بأن يعلن عنها ، فيتقدم من يرغب في أخذها ، فيزيد على غيره ممن ينافسه ، وهكذا حتى ترسو على آخر المتزايدين ، فيتولى هو جمع الجباية عن طريق تعيينه موظفين يقومون بجباية الضرائب المقررة ، فيقدم هو للحكومة المبلغ الذي رسا عليه ، ويأخذ الفضل لنفسه . وقد تألفت في (رومة) شركات كبيرة خصصت نفسها بأمور جباية الضرائب من المقاطعات الواسعة التابعة لانبراطورية (رومة) وكانت تتزايد فيما بينها حينما تعرض الحكومة جباية الضرائب في (المزاد) .

وقد فعلت هذه الشركات كل ما أمكنها فعله لجمع أكثر ما يمكن جمعه من أموال من المكلفين لتغطية مبلغ التعهد الذي أعطته للحكومة وللحصول على أرباح مفرطة لها ، بأن أرهقت كاهل المكلف بأخذ أضعاف ما حدد من مقدار الضريبة ، ولم تنفع الرقابة الحكومية التي وضعتها الحكومة على هذه الشركات وعلى الجباة ، ذلك لأن (الحكام) حكام الولايات ومن بيدهم أمر الرقابة المالية ومن كان بيده أمر النظر في عرض الجباية على المتزايدين كانوا مرتشين ، فكانوا يغضون الطرف عن تعسف الجباة ولا ينصفون المشتكين من الناس منهم . وقد ضج الناس من أصحاب المكس ، وأشير الى ظلمهم في الإنجيل ، وعدّوا من أصحاب الإثم أهل الخطيئة Sinners فكانوا من المُبغَضين[1] . وقد ندد بهم وبظلمهم في كتب الحديث.

وقد عين (الأباطرة) أحياناً عمالاً procurator على المقاطعات للاشراف على جمع الجباية ، وعينوا موظفين في الموانىء والثغور لجباية الضرائب عن الأموال المصدرة التي تصدر الى الخارج ، وعن الأموال التي تستورد الى الانبراطورية ، ومن التجار الرومان ، أو التجار الأجانب .

وقد وردت في النصوص العربية الجنوبية مصطلحات لها علاقة بالضرائب وبالأرباح ، منها مصطلح (نعمت) ، أي (نعمة) ، وتعني هنا ما أنعم به على الانسان ، أي ما يحصل عليه من السوق ، وما يربحه من تجارته . فهي

---

١ Hastings p. 776.

بمعنى الربح . وللحكومة او القبيلة او لأصحاب السوق حق أخذ نصيب مقرر من هذه (النعم) ، اي الأرباح . ويعبر عـن النصيب الذي تأخذه الحكومة من الأرباح بـ (زعرتم) (زعرت) (زعرة) ، من أصل (زعر) . وتعني (زعر) قلّ وتفرّق[1] ، فكأن العرب الجنوبيين عبّروا عن نصيب الحكومـة بهذه اللفظة ، لأن ما يدفع للحكومة هـو مما يقلل من المبلغ ويصغره ، فالربح اذن هو (نعمتم) ، (نعمة) ، (نعمت) ، وهو كل ربح يصيب أحداً . وأما ما يؤخذ عن الأرباح ويدفع للحكومة : فهو (زعرتم) (زعرت) (زعرة)[2]، أي ضريبة .

وترد لفظة (همد) بمعنى الضريبة في العربيات الجنوبية ، أي ما يفرز ويعطى للحكومـة أو للمعبد او للسادات سادات القبائل والأرضين التي يهيمنون عليها . و (الهميد) في عربية القرآن الكريم (المال المكتوب عليك في الديوان) و (المال المكتوب على الرجـل في الديوان) فيقال : هاتوا صدقته ، وقـد ذهب المال و (الصدقة)[3] . وهذا التفسير قريب من المعنى المقصود من اللفظة في العربيات الجنوبية .

وقد أخذت حكومات العربيـة الجنوبية بطريقة تعيين موظفين خاصين بجمع الضرائب وبالاشراف على الجباة وعلى كيفية الجباية ، كما أخذت بطريقـة ايداع الجباية الى الإقطاعيين وسادات القبائل ، فهم الذين يجمعون الحقوق من أتباعهم، ويقدمونها الى الحكومة . وذلك بالالتزام . وللحكومة موظفون واجبهم التحقق من أن هؤلاء الملتزمين لا يأكلون حق الحكومة ، ويأخذون من أموال الجباية النصيب الأكبر ، ولا يقدمون للدولة الا شيئاً قليلاً من استحقاقها .

وفي كل الحالات المذكورة كان المكلف يرهق بدفع الضرائب ارهاقاً ، ويجبر على دفع ضرائب تزيد على طاقته خاصة ، وقد كانت الضرائب متنوعة عديدة . ضرائب للحكومة ، وضرائب للمعبد ، وضرائب للسيد صاحب الأرض أو سيـد القبيلة ، ثم عليه السخرة أي العمل الإجباري دون مقابل وعليه الانخراط في سلك

---

١ تاج العروس (٣/٢٣٧) ، (ز/ع/ر) .
REP. EPIGR. 4337, Jastrow, A Dictionary of the Targum, p. 407, (1886).

٢ تاج العروس (٢/٥٤٧) ، اللسان (٣/٤٣٧) ، (همد) ،
REP. EPIGR. 4337, p. 203.

المحاربين حين الطلب ، فأثر كل ذلك في الوضع الاقتصادي ، وفي المجتمع العام تأثيراً كبيراً ، ونهك السواد الأعظم من الناس ، مما جعلهم يتذمرون من الحكام والحكومة والسادات،ولا يؤدون ما عليهم من واجبات وخدمات عامة الا مكرهين.

ولعل هذا الارهاق الذي نزل بالرعية في دفع الضرائب ، هو الذي حملها على اطلاق (الآكل) و (الآكال) و (آكال الملوك) و (مآكل الملوك) على ما يجعله الملوك مأكلة لهم ، لأنهم جعلوا أموال الرعية لهم مأكلة ، واما (المأكول)، فهو الرعية ، لأن الملوك تأكل أموالهم[1] . فالملوك تأخذ ولا تعطي ، والرعية تعطي ولا تأخذ ولا تستفيد مما تدفعه للوكها من ضرائب أية فائدة .

والضريبة في تعريف علماء اللغة : ما تؤخذ في الأرصاد والجزية ونحوها ، مثل ما يؤديه العبد الى سيده من الخراج المقرر عليه،ومن الضرائب : ضرائب الأرضين وهي ضرائب الخراج عليها ، وضرائب الإتاوة التي تؤخذ من الناس[2] .

وعرف علماء اللغة الإتاوة : أنها الرشوة والخراج ، وقال بعضهم : كل ما أخذ بكره ، أو قسم على موضع الجباية وغيرها ، فهو اتاوة . وفي ذلك قال (حُنَيّ بن جابر التغلبي) :

ففي كل أسواق العراق إتاوةٌ وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم[3]

وذكر (ابن فارس) أن (الإتاوة) من الألفاظ التي زالت بزوال معانيها ، فهجرت لذلك[4] .

ويقال للإتاوة : الأريان . والاريان بمعنى الخراج أيضاً[5] . وقد ذكرت اللفظة في شعر (الحيقطان) ، شاعر اليمانية،وكان قد قال قصيدة يرد فيها على الشاعر (جرير) ، فهجا بها قريشاً ، وكان مما قال فيها :

وقلتم لقاح لا تؤدى إتاوة فاعطاء اريان من الفرّ أيسر[6]

---

١ اللسان (١١/٢١) ، (صادر) ، (اكل) .
٢ اللسان (١/٥٥٠) ، (ضرب) ، تاج العروس (١/٣٤٩) ، (ضرب) .
٣ اللسان (١٤/١٧) ، (اتى) .
٤ الصاحبي (ص ٩٠) .
٥ اللسان (١٤/٣١) ، (أري)
٦ فخر السودان من رسائل الجاحظ (١/١٨٤ وما بعدها) .

فقال : قلتم إنا لقاح ولسنا نؤدي الخراج والاريان،فإعطاء الخراج ، أهون من الفرار واسلام الـدار للأحابيش ، وأنتم مثل عدد من جاءكم المرار الكثيرة[1] . ويقصدون باللقاح الحي لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم في الجاهلية سبأ[2] .

والإتاوة في الأصل الجباية عامة ، أي جباية كل شيء . وهي كلمة عامـة تشمل أخذ كل عطاء ، اي كل ما يؤخذ طوعاً او كرهاً عن شيء ، فتشمـل الخراج والجزية والجباية والرشوة ، وما يفرض تعنتاً وزوراً ، والمكوس. والخراج اتاوة . يقال أدى اتاوة أرضه ، اي خراجها ، والجبايـة اتاوة . يقال ضربت عليهم الاتاوة ، اي الجباية ، وهي بمعنى الرشوة . يقال شكم فاه بالاتاوة ، أي الرشوة . وتدخل فيها الرشوة على الماء . وجاء في قول الجعدي :

موالي حلفٍ لا موالي قرابة ولكن قطيناً يسألون الاتاويا

أي هم خدم يسألون الخراج[3] .

وقد ذكر (الجاحظ) الإتاوة في جملة ما ترك الناس في الاسلام من ألفاظ الجاهلية ، إذ تركوها ، وأحلوا لفظة (الخراج) محلها[4] .

وكانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية شيئاً . كانت تأخذ بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر ، إتاوة . ولمـا خرج (ظويلم) الملقب بـ (مانـع الحريم) في الجاهلية يريد الحجّ ، فنزل على المغيرة بن عبدالله المخزومي ، فأراد المغيرة أن يأخذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية ، امتنع عليه (ظويلم) وقال :

يا رب هل عندك من غفيره إنّ مني مانعـه المغيره
ومانـع بعد مني ثبيره ومانعي ربّـي أن أزوره

وذلك سُمّي (الحريم) . وظويلم الذي منع (عمرو بن صرمة) الإتاوة التي كان يأخذها من غطفان[5] .

---

١ المصدر نفسه (١٨٧) .
٢ أنشد ابن الاعرابي :
أبوادين المـلوك ، فهـم لقـاح اذا هيجوا الى حـرب ، أشاحـوا
اللسان (٢/٥٨٣) ، (لقح) .
٣ تاج العروس (١٠/٧) ، (أتو) .
٤ الحيوان (١/٣٢٧) ، (هارون) .
٥ الاشتقاق (١٧١ وما بعدها) .

ويعبر في عربية القرآن الكريم عن الشيء الذي يخرجه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم بـ (الخرج) وبـ (الخراج) ، فهو إتاوة تؤخذ من أموال الناس[1] . و (الخرج) كما يقول علماء اللغة أعم من الخراج ، وجعل الخرج بإزاء الدخل . والخراج مختص في الغالب بالضريبة على الأرض . وقيل : العبد يؤدي خرجه ، أي غلّته ، والرعية تؤدي الى الأمير الخراج[2] . وقد خصصت لفظة (الخراج) في الاسلام بما وضع على رقاب الأرض ، وخصصت الجزية بما يدفع عن الرأس. و (الخرج) بما يدفعه الرقيق الى سيده وماله عن خراجه[3] . وقيل : هو الأجرة، وان الخرج من الرقاب ، والخراج من الأرض. وأرض الخراج تتميز عن أرض العشر في الملك والحكم[4] .

ويقابل (الخراج) بالمصطلح الاسلامي لفظة Phoros في اليونانيـــة ، فهي ضريبة الأرض عند اليونان[5] . وقد كان البيزنطيون قد فرضوا (الخراج) على غلة الأرض يدفعها كل من خضع لهم . وكان يدفعها عرب الشأم لهم أيضاً ، لأنهم كانوا في حكمهم . وأما عرب العراق ، فقد دفعوا (الخراج) الى الفرس[6] .

ويقال للخراج (خرجا) في لغة بني إرم ، ووردت في (التلمود) بلفظ: (خرجه) و (خرجا) . وهي عند الساسانيين خراج الأرض ، أي الضريبة الخاصة بحاصل الأرض . ولكن الفرس القدماء لم يكونوا في القـــديم يفرقون بين الخراج والجزية ، أي ضريبة الرأس ، بل كانوا يطلقونها على الضريبتين . وقد وردت لفظة (خرجا) في التلمود بمعنى ضريبة الرأس[7] .

وأطلق (التلمود) على ضريبة الأرض اسم (طسقه) (طسقـــا) Taska

---

١ اللسان (٢/٢٥١) ، القاموس للفيروزابادى (١/١٨٤) ، تابع العروس (٢/٢٨)، (خرج) .

٢ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ١٤٥) .

٣ اللسان (٢/٢٥١) ، القاموس (١/١٨٤) ، الطبرسي ، مجمـــع (٦/٤٩٢ ومـــا بعدها) ، تفسير الطبري (١٦/١٧) ، البيضاوي (٢٩٧) ، الكشاف (٢/٢٧١/ ٣٦٦ ، روح المعاني (١٦/٣٧) ، (١٨/٤٨) ، الاحكام السلطانية (ص ١٤٢ ، ١٤٦ وما بعدها) ، كتاب الخـــراج ، لابي يوسف (ص ٣٩) ، النهايـــة ، لابن الاثـــير (١/١٩٠) .

٤ الاحكام السلطانية (١٤٦ وما بعدها) .

٥ Hastings, p. 948.

٦ دائرة المعارف الاسلامية (٨/٢٨٠) ، (الخراج) .

٧ J. Obermyer, Die Landschaft Babylonien, S. 221.

(ط س ق) . وهي بهذا المعنى عند الفرس[1] . وقد أخذ العبرانيون اللفظة من الفرس . وقد كتب (عمر) الى (عثمان بن حنيف) في رجلين من أهل الذمة أسلما : (إرفع الجزية عن رؤوسهما ، وخذ الطسق من أرضيهما) . وعرف علماء العربية (الطسق) بأنه شبه الخراج ، له مقدار معلوم ، وما يوضع من الوظيفة على الجريان من الخراج المقرر على الارض . وقد ذكروا أن اللفظة فارسية معربة[2].

وقد وردت لفظة (الخرج) و (الخراج) في القرآن الكريم[3] ، مما يدل على ان اللفظتين كانتا معروفتين عند أهل الحجاز قبل نزول الوحي على الرسول ، وانهما كانتا من الألفاظ المستعملة عندهم في الأمور المالية المتعلقة بدفع الضرائب الى الحكومات والى ذوي السلطان . ويرى بعض المستشرقين ان الجاهليين أخذوا اللفظة من (بني إرم) ، وانهم وقفوا على (خرجه) ، (خرج) و (خرجا) ، وحولوهما الى (خرج) و (خراج) .

ولما فتح المسلمون العراق والشأم ، أبقوا النظم المالية والادارية على ما كانت عليه في أول الأمر ، لأنها نظم قديمة ، لم يكن من السهل تغييرها وتبديلها ، فكان (الخراج) في جملة ما أبقي من النظم المالية . وقد دفع عيناً أي غلة ، فكان محتسب الخراج ، يذهب الى القرى عند دنو أجل دفع الخراج ، فيأخذه من المزارعين عيناً ، كأن يدفع بُرّاً أو شعيراً ، أو مالاً ، أي نقداً بالدنانير أو الدراهم . ثم غلب الدفع نقداً على الدفع عيناً ، وصار هذا النقد مورداً مهماً من موارد بيت المال[4] .

والجزية من الألفاظ المستعملة عند الجاهليين كذلك ، بدليل ورودها في القرآن الكريم[5] . وقد خصصت في الاسلام بما يؤخذ من أهل الذمة على رقابهم[6] .

---

١ J. Obermyer, Die Landschaft, S. 221-222, Baba M. 73b.

٢ اللسان (ط/س/ق) ، (١٠/٢٢٥) ، غرائب اللغة (٢٣٨) .

٣ سورة المؤمنون ، الاية ٧٢ ، سورة الكهف ، آية ٩٣ ، كتاب الخراج ، لابي يوسف (٣٩)

٤ دائرة المعارف الاسلامية (٨/٢٨٠) .

٥ التوبة ، الاية ٢٨ وما بعدها .

٦ المفردات للاصفهاني (ص ٩١) ، اللسان (١٤/١٤٦ وما بعدها) ، القاموس (٤/٣١٢) (دار المأمون) ، تاج العروس (١٠/٧٣) ، دائرة المعارف الاسلامية (٦/٤٥٤) ، الكشاف (٢/٣٥) ، الطبري (١٠/٢١) ، روح المعاني (١٠/٧٠) ، تفسير البيضاوي (١٩٣ ، ٢٩٧ ، ٣٣٧) .

وقد كان الجاهليون يأخذون الجزية من المغلوبين ، وكانت عندهم الضريبة التي تؤخذ عن رؤوس المغلوبين ، يدفعونها الى الغالب . فدفعتها القبائل المغلوبة للقبائل الغالبة ، على أساس الرؤوس .

والظاهر أن المسلمين في صدر الاسلام لم يكونوا يفرقون بين الخراج والجزية، فقد استعملوا الخراج عن الرؤوس وعن الأرض ، كما استعملوا لفظة (الجزية) بمعنى خراج الأرض[1] ، ورد في الحديث : « من أخذ أرضاً بجزيتها »[2] .

وأشار الطبري الى أن (المثنى)،وضع على أهل الحيرة بعد كفرهم وارتدادهم (أربعمائة ألف سوى الحَرَزة)[3] . ويذكر علماء اللغة أن (الحرزة) خيار المال لأن صاحبها يحرزها ويصونها . والحرائز من الإبل التي لا تباع نفاسة بها[4] . وجعلها بعضهم (الخرزة) . وقالوا انها نوع من جزية الرؤوس ، كانت معروفة في زمن الأكاسرة ، يؤديها كل من لم يدخل في جند الحكومة[5] .

و (المكس) ، دراهم تؤخذ من بائع السلع في أسواق الجاهلية . ويقال لجابي المكس : صاحب المكس ، والماكس والمكّاس[6] . والمكس الجباية . و(الماكس) الذي يتولى المكس . قال العبديُّ في الجارود :

أيا ابن المعلّى خلتنا أم حسبتنا صراريّ نعطي الماكسين مكوسا[7]

وكان (الماكس) ، ويقال له العشّار ، يشتط في كثير من الأحيان ، ويظلم الناس في الجباية ، إذ يزيد عليهم في المقدار ، فكانوا لذلك مكروهين ، حتى لقد ورد في الحديث : « لا يدخل صاحب مكس الجنة »[8] .

وقد أشير الى المكس والى الإتاوة التي تؤخذ من أسواق العراق في شعر (جابر ابن حُنيّ) :

---

١ (والجزية : خراج الاض) اللسان (١٤/١٤٦ وما بعدها) (جزى) ، دائرة المعارف الاسلامية (٨/٢٨٠) ، تاج العروس (١٠/٧٣) ، (جزى) ، النهاية (١/١٩٠) .

٢ اللسان (١٤/١٤٦) ، النهاية (١/١٩٠) تاج العروس (١٠/٧٣) ، (جزى) .

٣ الطبري (٣/٣٦٤) .

٤ تاج العروس (٤/٢٤) ، (حرز) .

٥ الطبري (٣/٣٦٤) ، ملحوظة (٦) ، الوثائق السياسية (٤٢٢) .

٦ تاج العروس (٤/٢٤٩) ، (مكس) ، الصاحبي (ص ٩٠) ، المخصص (١٢/٢٥٣) .

٧ الحيوان (١/٣٢٧) ، (هارون) .

٨ اللسان (٦/٢٢٠) ، (مكس) ، الصحاح (١/٤٧٧) .

أفي كلّ أسواق العراق إتاوة وفي كلّ ما باع امرؤٌ مكسُ درهم[1]

فإن ملوك العرب كانت تأخذ من التجار في البرّ والبحر ، وفي أسواقهم ، المكس ، وكانوا يظلمونهم في ذلك . ولذلك قال جابر بن حنيّ ، وهو يشكو ذاك في الجاهلية ويتوعد ، وهو قوله :

ألا تستحي منّا ملوك وتتقي محارمنا لا يبوء الدم بالدم
وفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم[2]

ولهذا زعم الأعراب أن الله لم يدع ماكساً إلاّ أنزل به بليّة ، وأنه مسخ منهم اثنين ضبعاً وذئباً . فلهذه القرابة تسافدا وتناجلا ، وإن اختلفا في سوى ذلك. فمن ولدهما السمع والعسبار . وفي هذا المعنى قول الشاعر :

مَسَخَ الماكسين ضبعاً وذئباً فلهذا تناجلا أم عمرو

وضريبة (العشر) هي ضريبة معروفة بين الجاهليين ، فقد كانت الحكومات تتقاضى عشر ما يحصل عليه التاجر من ربح في البيع والشراء ، وكان المتولون أمور الأسواق يتقاضون العُشر كذلك . وقد أشير اليها في كتابة قتبانية ، حيث كانت حكومة قتبان تتقاضى هذه الضريبة من المتعاملين في البيع والشراء،اذ كانت تأخذ عشر الأموال[3] ، وتوسعت في ذلك حتى عمت هذه الضريبة على كل ربح أو وارد يصيبه الرجل سواء أكان ذلك من البيع والشراء أم من الإجازة والإرث[4].

وقد كانت هذه الضريبة مقررة في كل جزيرة العرب وفي خارجها، ففي كل سوق من الأسواق عشارون يجبون العشر ممن يبيع ويشتري،بأمر المشرف على السوق ومن في أرضه تقام ، ويقدم ما يجمع اليه . ومن أخذ العشر من التاجر ، قيل

---

١ الحيوان (٣٢٧/١) ، (هارون) ·
وفي كل أسواق العراق اتامة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
الحيوان (١٤٨/٦) ، (هارون) ·

٢ الحيوان (١٤٨/٦ وما بعدها) ، (هارون) ·

٣ Glaser 1601, Rhodokanakis, Kat. Texte, I, S. 7.

٤ Glaser 1601, Rhodokanakis, Kat. Texte, I, S. 7.

لجابيه : العشار والمعاشر ، وهو الذي يعشر الناس[1] .

وقد كان التجار العرب الذين يقصدون بلاد الشأم للاتجار في أسواقها يدفعون العشر الى العشارين ، ففي (بُصْرى) وغزّة ، وهما أشهر الأسواق في تلك البلاد بالنسبة الى العرب ، كان تجار العرب يؤدون ضريبة العشر الى الجباة الذين عيّنهم الروم ، كذلك كان يعشر أصحاب الأسواق من يفد عليها من التجار .

ويؤخذ العشر عيناً أو نقداً بحسب الثمن . ولما كان النقد قليلاً إذ ذاك كان الدفع عيناً هو الغالب في أداء هذه الضريبة . وقد أبطل الاسلام هذه الضريبة ، وعدّها من سيماء أهل الجاهلية ، وجعل رفعها من التخفيف الذي جاء به دين الله . وقد ذكر المحدثون أحاديث في إبطالها وفي ذم من يعشر الناس . بل ورد في بعضها جواز قتل العشّار[2] . ويظهر ان أهل الجاهلية كانوا يشتطون في أخذها ويسرفون في ظلم التجار وأصحاب السوق في أخذها ، فذمّوا العشار وهجوه . ودعوا عليه . وقد ذكر بعض أهل الأخبار ان (سهيلاً) كان عشاراً على طريق اليمن ظلوماً ، فمسخه الله كوكباً[3] .

وكان مما يفعله العشّارون وضع (المآصر) على مفترقات وملتقيات الطرق وعلى المواضع المهمة من الأنهار ليؤصروا السابلة وأصحاب السفن ، ولتؤخذ منهم العشور[4] .

وقد عرف من كان يقوم بالتقدير والخرص بـ (الحازر) و (الخارص). لأنه كان يحزر المال ويقدر ما يجب أخذه منه ومن غلة الزرع بالحدس والتقدير . وكان الحاذر يشتد في أخذ الحزرة ويتعسف على الناس . وقد نهى النبي عن ذلك والحاذر مثل العشار والخارص من المكروهين عند الجاهليين[5] . و (الخارص) المقدر والمخمّن ، ومنه خرص النخل والتمر ، لأن الخرص ، إنما هو تقدير بظن لا احاطة . وما يدفع عن الأرض والنخل الخرص . يقال: كم خرص أرضك ،

---

١ تاج العروس (٣/ ٤٠٠) ، اللسان (٤/٥٦٧) ، النهاية (٣/ ١١٠) ، القاموس (٢/ ٨٩) .

٢ تاج العروس (٣/ ٤٠٠) ، (عشر) ، اللسان (٤/٥٦٧) ، (عشر) ، النهاية (٣/ ١١٠) ، القاموس (٢/ ٨٩) .

٣ تاج العروس (٧/ ٣٨٤) ، (سهل) .

٤ اللسان (٤/ ٢٤) ، (أصر) .

٥ تاج العروس (٣/ ١٣٨) ، (حزر) .

وكم خرص نخلك ، وفاعل ذلك الخارص . وكان النبي يبعث الخرّاص لخرص نخيل خيبر عند ادراك ثمرها ، فيحزرونه رطباً كذا وثمراً كذا [1] .

وكان أهل الحجاز وبقية جزيرة العرب ، يدفعون العشر عن غلات أرضهم . فلما جاء الاسلام ، أقر ذلك ، وجعل أرض العرب أرض عشر . ولم يدخلها الخلفاء في أرض الخراج [2] .

ويعبر عن الضريبة التي تقابل ضريبة (الكمارك) في مصطلحنا، بلفظة Telos، وبـ Telonion عن (الكمرك) ، أي الموضع الذي تؤخذ به الضرائب(الكمركية) من التجار [3] . وكان الرومان واليونان قد أقاموا (كمارك) على حدودهم مع البلاد العربية وضعوا فيها جباة لجباية العرب القادمين من جزيرة العرب للاتجار .

ولما كان من الصعب على الروم جباية العشور والحقوق الأخرى من العرب ، وكلوا أمر الجباية الى سادات القبائل والأمراء في الغالب ، ممن يعتمدون عليهم وممن لهم قبيلة قوية تخشاها القبائل الأخرى ، وقد كان أمد هذا الايكال يتوقف على أهمية الشخص ومكانته ومنزلة قبيلته ، فإذا مات وترك خلفاً ضعيفاً، أو فقدت قبيلته سلطانها ، حتى طمعت فيها قبائل أخرى أقوى منها ، ووجدوا ألا أمل لهم في هذا الشخص ، فإنهم ينبذونه ويعطون الجباية الى شخص آخر . وقد كان (سلامة بن روح بن زنباع الجذامي) ، أحد من أولى اليهم الروم العشور ، وقد هجاه (حسان بن ثابت) فوصفه بأنه (دمية) في لوح باب ، وانه بئس الخفير ، وانه غادر خدّاع ، ولا ينفك أي جذامي يغدر ويخدع ما دام (ابن روح) حياً [4].

وقد أقر العشر في الاسلام ، ولكن بأسلوب آخر ، فأخذ من (خثعم) ، كما أخذ من أهل (دومة الجندل) . وأخذ أيضاً من حمير ، فقد جاء في كتاب الرسول الى رؤسائهم الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان : (وأعطيتم من المغانم خمس الله ، وسهم الرسول وصفيه ، وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار ، عشر ما سقت العين

---

١ تاج العروس (٤/ ٣٨٥) ، (خرص) .
٢ الخراج (٥٨) ، النهاية (١/ ١٩٠) .
٣ Hastings, p. 948.
٤ البرقوقي (ص ٢١٩) .

وسقت السماء ، وعلى ما سقى الغرب[1] نصف العشر . وإن في الإبل الأربعين ابنة لبون ، وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر ، وفي كل خمس من الإبل شاة ، وفي كل عشر من الإبل شاتان ...)[2] . وعقد مثل ذلك مع بني الحارث بن كعب[3].

والكلام على العشر في الاسلام ، وعلى الأرضين التي كانت تدفع العشر ، يخرجنا من بحثنا هذا ، وللفقهاء كلام طويل مسهب في هذا الموضوع ، فعلى كتب الخراج مثل كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف وكتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي ، وكتب الفقه والأحكام أحيل القارىء الراغب في الوقوف على العشر في الاسلام .

والعشر من الضرائب القديمة المعروفة عند الشعوب القديمة من ساميين وغيرهم، وتكاد تكون من أقدم الضرائب المعروفة في التأريخ،وهي (اشرو) Ish-ru-u في النصوص الآشورية[4] و (معشير) Ma'asher في العبرانية[5] . وقد كان الآشوريون يتقاضون العشر من التمر والحبوب عيناً ، كما كانوا يتقاضونه ذهباً[6].

وقد كانت معظم الشعوب الهندوجرمانية والسامية وغيرها تعشر أموالها : تعشر الماشية ، والأثمار ، وكل ما تملكه وما تغنمه في الحرب ، وتخصصه باسم آلهتها. فالعشر زكاة قديمة أدتها الشعوب الى آلهتها تقرباً اليها وتطهيراً لأموالها ، فهي من أقدم الضرائب عند الانسان[7] .

وقد خصص العشر بـ (يهوه) إلـه اسرائيل وحده ، يجمعها اللاويون باسمه ، ولكننا نجد أن العبرانيين دفعوا العشر في بعض الأحيان الى الملوك كذلك[8] .

ويمكن رد الأسباب التي دعت العبرانيين الى تخصيص العشر بالله (يهوه) الى اعتقاد العبرانيين أن الله هو مالك كل شيء ، وأن الأرض والعالم كله له ، وأنه

---

١ الغرب : الدلو .
٢ ابن هشام (٤/٢٣٦) : (قدوم رسول ملوك حمير بكتابهم) .
٣ ابن هشام (٤/٢٤٠) : (اسلام بني الحارث بن كعب على يدي خالد بن الوليد لما سار اليهم) .
٤ Shrader, Keilinschrift Bibliotheck, IV, 192, 205.
٥ Shrader, Keilinschrift. Bibliotheck, IV, 102, 205.
٦ التكوين : الاصحاح الرابع عشر ، الاية ٢٠ ، الاصحاح ٢٨ اذية ٢٢ .
٧ Hastings, p. 940.
٨ قاموس الكتاب المقدس (٢/١٠٣) ، Hastings, p. 940.

مانح الخصب والحياة ، وأنه الكائن الأعلى ، ولهذا خصصوا عشر ما ينتجه العبراني لله ، ثم لسبب آخر نشأ فيما بعد ، هو تقرب العبرانيين إلى إلههم بهذا العشر ، عبادة له وتقرباً اليه . وذلك كما يفهم من الآيات الواردة عن العشر في التوراة [1].

وتدفع القبائل الضعيفة إتاوة الى القبائل الكبيرة أو الى الملوك ، تكون بمثابة حق الحماية والاعتراف بالسيادة . ولهذا كانت القبائل التي لا تدفع إتاوة تتباهى وتفتخر لأن ذلك يدل على عزتها ومنعتها ويقال : إن الأوس والخزرج ابنيّ قيلة ، لم يؤديا إتاوة قسط في الجاهلية الى أحد من الملوك . فلما كتب اليهم تبع يدعوهم الى طاعته ويتوعدهم ،لم يجيبوه ، وتحارب معهم ، ثم ارتحل عنهم[2] . وكانت للغطاريف على دوس إتاوة يأخذونها كل سنة ، حتى إن الرجل منهم كان يأتي بيت الدوسي ، فيضع سهمه أو نعله على الباب ثم يدخل[3] .

ويقال للقوم الذين قهروا على أمرهم ، واضطروا إلى أداء ضريبة لمن قهرهم، (النخة) ، وصاروا (نخة) له [4] .

ولا بد لي من الإشارة هنا الى جباية كانت الحكومات تأخذها عيناً عن الحبوب والزراعة ، للإنفاق منها على إعاشة الجيش . وقد عرفت بـ (س ا و ل ت) ، (ساولت) . ذكرت في النصوص السبئية والقتبانية . فهي ضريبة عينية تؤخذ من الزراعة ، يجبيها موظفون يعرفون بـ (ساولت)[5] ، فهم جمّاع هذه الضريبة.

وكان ملوك الجاهلية قد وضعوا (الوضائع) على رعيتهم ، من الزكوات والمغنم في الحروب ، يستأثرون به . وقد أشير اليها في الحديث . ورد في حديث (طهفة بن زهير النهدي) ، أن الرسول قال : « لكم يا بني نهد ودائع الشرك ووضائع الملك . أي ما وضع عليهم في ملكهم من الزكوات . أي لكم الوظائف التي نوظفها على المسلمين لا نزيد عليكم فيها شيئاً . وقيل معناه : ما كان من ملوك الجاهلية يوظفون على رعيتهم ويستأثرون به في الحروب وغيرها من المغنم . أي

---

١ Hastings, p. 940.
٢ العقد الفريد (٢/١٩٢ وما بعدها) .
٣ الاغاني (١٢/٥٣) .
٤ اللسان (ن/خ/خ) ، (٣/٦٠) .
٥ Handbuch, I. S. 128.

لا نأخذ منكم ما كان ملوككم وظفوه عليكم ، بل هو لكم)[1] .

والوضائع : أثقال القوم . وأما الوضائع الذين وضعهم كسرى ، فهم شبه الرهائن ، كان يرتهنهم وينزلهم بعض بلاده . وقيل : الوضائع قوم كان كسرى ينقلهم من أرضهم فيسكنهم أرضاً أخرى ، حتى يصيروا بها وضيعة أبداً . وهم الشحن والمسالح[2] .

والودائع : العهود والمواثيق . ويحتمل أن تكون كل ما يستودع من رهائن ، من مال وبنين ، ليكون رهينة على الوفاء بالعهد والموعد[3] .

وذكر (الجاحظ) ان في جملة ما ترك من ألفاظ الجاهلية التي لها صلة بالجباية والمال (الحُملان) ، ويراد بها الرشوة وما يؤخذ للسلطان[4] . والحُملان ما يحمل على الشيء من أجر ، و (الحمالة) الدية أو الغرامة التي يحملها قوم عن قوم[5] .

ويظهر من شعر العبدي :

أيا ابن المعلّى خلتنا أم حسبتنا صراريّ نعطي الماكسين مُكوسا

ان أصحاب السفن وهم (الصراريون) ، كانوا يعطون المكس عن البضائع التي تحملها سفنهم ، حين وصولها الى الموانيء[6] .

الأشناق والأوقاص :

ودفع الجاهليون ضرائب أخرى ، منها : (الأشناق) و (الأوقاص) . وقد خص بعض العلماء (الأشناق) بالإبل : فإذا كانت من البقر ، فهي (الأوقاص)[7]. وقد تحدث العلماء عن حدود الأشناق والأوقاص في الاسلام . وفي كتب الفقه أبواب خاصة بهما .

---

١ تاج العروس (٥/٥٤٥) ، (وضع) ، (ومنه كتاب النبي ، صلى الله عليه وسلم : لكم يابني نهد ودائع الشرك ووضائع المال) ، تاج العروس (٥/٥٣٥) ، (ودع) .

٢ تاج العروس (٥/٥٤٥) ، (وضع) .

٣ تاج العروس (٥/٥٣٥) ، (ودع) .

٤ الحيوان (١/٣٢٧) ، (هارون) .

٥ تاج العروس (٧/٢٨٩ وما بعدها) ، (حمل) .

٦ الحيوان (١/٣٢٧) ، (هارون) ، تاج العروس (٣/٣٣٠ وما بعدها) ، (صرر) .

٧ تاج العروس (٤/٤٤٦) ، (وقص) ، (٦/٤٠٠ وما بعدها) ، (شنق) .

وكان منهم من تحايل في سبيل التخلص من أداء ما عليه من الأشناق والأوقاص. وقد كتب الرسول الى (وائل بن حجر) : لا خلاط ، ولا وراط ،ولا شناق ولا شغار . وعيّن الرسول الحدود فيها . والوراط : الخديعة والغش[1] .

وليس في استطاعتنا تعيين الضرائب المجباة ، وتحديدها تحديداً مضبوطاً ، فقد كانت تختلف باختلاف الأمكنـــة والأزمنة . ثم إن العادة أن تؤخذ الضريبة من القبيلة او العشيرة مجتمعة ، أي ان رئيس القبيلة او العشيرة هو الذي يتولى تقديم ما على القبيلة من ضرائب الى الحكومة ، ويختلف ذلك أيضاً بحسب صلة الرئيس بالحكومة ، وبحسب قوته ومركزه السياسي لدى المسؤولين . والرئيس هو الـذي يعين نصيب أفراد القبيلة من الضرائب ، وذلك بعد اتفاقه مع الحكومة عـــلى ما هو مفروض على القبيلة دفعه لها ، وبعد موافقة مجلس القبيلة على ما فرض عـلى القبيلة دفعه الى الحكومة .

هـــذه هي الضرائب التي كانت تدفع عن التعامل والإتجار . وهناك ضرائب أخرى أوجب دفعها الى سادات القبائل في مقابل حماية القوافل وضمان مرور التجارة في أرضهم بأمان وسلام ، وهي ضرائب حق المرور . وإلا تعرضت التجارة للنهب والسلب ، وتعرض أصحاب القافلة للخطر والهلاك . ولحماية التجارة يتفق التجـار عادة مع سادات القبائل التي تمر القوافل في أرضهم على دفع جعالة في مقابل تقديم الحماية لها والمحافظة على سلامتها ، وبذلك تمر بأمن وسلام .

وفي (قتبان) نجد نفوذ المعبد على الأهلين كبيراً . وللمعبد أرضون واسعـــة تدرّ عليه دخلاً كبيراً ، وله ضرائب تبلغ عشر الدخل والمـيراث والمشتريات . بالإضافـــة الى النذور والعطايا التي يتبرع بها الأغنياء له . وقد حفظت النصوص القتبانية وثائق عـــديدة تتعلق بما كان يتقاضاه المعبد من الناس من زكاة وأموال تزكيةً لأعمالهم ولأنفسهم ، باسم الآلهة التي لها سلطان كبير على الناس .

ولما كانت النقود قليلة إذ ذاك ، كان دفع الضرائب عيناً في الغالب . ويعبر عن ذلك بـ (دعتم) . أما إذا كان الدفع نقداً ، فيعبر عن ذلك بـ (ورقم) . أي (ورق) .

---

١ تاج العروس (١٣٢/٥) ، (خلط) ، (٢٣٧/٥) ، (ورط) .

وقد كانت الحكومة تضع يدها على المحصول أحياناً او على البضاعة المهربة أو البضاعة التي يمتنع أصحابها عن دفع الضريبة عنها ويعبر عن ذلك بـ (رزم) .

تقدير الغلات الزراعية :

وكان تقدير حصة الحكومة من الغلّات الزراعية ، بواسطة خبراء الحكومة وموظفيها المسؤولين عن جمع الضرائب ، وذلك لأنهم كانوا يذهبون الى المزارع والبساتين إبان إدراك النبات وقبل حصاده أو جَنْيه ، ثم يخمّنونه ويقدرون مقدار ما يجب دفعه للحكومة . وطالما أدت هذه الطريقة الى الاضرار بالفلاح ، إذ يجوز أن يتعرض الزرع لآفات زراعية وللتلف والضرر ، فيقل الحاصل كثيراً ، ولا يستطيع تحمل دفع ما قدر عليه ، ولكن جباة الضرائب يأخذون حصة الحكومة منه كما قدروها دون نقص ، فإذا امتنع المكلّف ، أخذ حاصله حتى يستوفى منه ما قدروه عليه .

ولم يكن من حق الفلاح حصاد زرعه وحمله الى مخزنه أو جني ثمر زرعه ونقله الى الأسواق والتصرف به ما لم يره جباة الضرائب لأخذ حصة الحكومة العينية . وقد استتبع هذا النظام تعيين عدد كبير من جباة الضرائب ، وانشاء مخازن لنقل حصص الحكومة اليها . وتستهلك الحكومة جزءاً من هذا الحاصل ، وتدفع قسماً منه الى موظفيها فالمدفوع لهم ، هو مرتباتهم وأجر عملهم . أما الباقي فيباع في الأسواق ، أو يُصدَّر لبيعه في البلدان الخارجية ، ولا سيما الحاصل المهم الثمين.

ويتقاضى المعبد في (معين) جملة ضرائب من الرؤساء وسائر الناس . لكل ضريبة اسم ، مثل (كبودت) و (اكرب) و (عشر) و (فرع) . وبعض هذه الضرائب تجبى عن حاصل الأرض وغلتها ، وبعضها عن التجارة والأعمال الأخرى مثل الصناعات . ولم يشترط دفعها كلها عيناً أو نقداً ، بل كانت تدفع عملاً أحياناً ، أي أن المكلفين بدفع الضرائب وجمعها من أتباعهم يقدمون الفعلة والصناع وعمال البناء أحياناً الى الحكومة ، او الى المعبد ، للقيام بالأشغال العامة بالمجان بدلاً من تقديم الضرائب نقداً أو عيناً . وذلك متى وافق المعبد على ذلك واعتبر الآلهة راضية عن انشاء ذلك العمل[1] .

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, 58, f.

وكانت الحكومات العربية الجنوبية تتقاضى ضرائب عن المغازل ودور النسيج. ويظهر ان أهل الحجاز كانوا يعرفون هذه الضريبة أيضاً. وقد ورد ان الرسول فرض في كتاب لقوم من اليهود ربع المغزل، أي ربع ما غزل[1].

الركاز:

أغلب العلماء في الاسلام ان الركاز دفين اهل الجاهلية، أي الكنز الجاهلي. وقال بعض الفقهاء الركاز المعادن كلها. فمن استخرج منها شيئاً فلمستخرجهـا أربعة أخماسه ولبيت المال الخمس. وكذلك المال العادي يوجد مدفوناً، هو مثل المعدن سواء، فحكم الركاز تأدية خمسه لبيت المال[2]. أما بالنسبة الى الجاهليين، فلا توجد عندنا نصوص جاهلية في بيان نصيب الحكومات منه. ويظهر من مطالبة سادات أهل مكة (عبد المطلب) بنصيبهم من الكنز الذي عثر عليه عند حفره بئر زمزم، ان حجتهم في المطالبة لم تكن تستند على قانون سابق، بل ارتكزت على ان الكنز لم يعثر عليه في أرض ملك، رقبتها لعبد المطلب، حتى يستأثر به، وانما عثر عليه في أرض مقدسة مشاعة، تخص البيت الحرام واهل مكة كلهم، لذلك وجب إشراك غيره به ومعنى هذا ان من يعثر على كنز في ملك له، يكون من حقه ونصيبه، لا تشاركه قريش فيه. وقـد وجد (عبدالله بن جدعان) كنزاً، سبق ان أشرت اليه، فلم يعط سادة قريش منه شيئاً، وكان من عادة اهل مكة نبش المواضع العادية بحثاً عن الكنوز، ولم نجد في الأخبار المروية عن ذلك ما يفيد بمشاطرة قريش لمن يعثر على كنز، بمعنى ان من يستخرج شيئاً من الدفائن يكون ما يستخرجه من نصيبه، لا تأخذ مكة منه نصيباً. وكيف تتمكن من ذلك، لأن من يعثر على كنز لا يظهره للناس، خشية اغتصابهم له. وان من شاهد أحـداً يستخرج كنزاً استعمـل حق القوة في الاستحواذ عليه أو على نصيب منه.

---

١ تاج العروس (٨/٤٢)، (غزل).
٢ تاج العروس (٤/٣٩)، (ركز)، صحيح البخاري (٢/١٥٩ وما بعدها)، (باب الركاز)، شرح اللمعة الدمشقية، للشهيد العاملي (١/١٥ وما بعدها).
اللسان (صرق)، (١٠/١٩٦ وما بعدها).

النذور والصدقات :

وما تحدثت عنه هو الضرائب المفروضة التي يجب على من تشمله دفعها . أما النذور والصدقات ، فهي هبة يقدمها المتمكن طوعاً للتقرب الى آلهتـــه أو شعوراً بمسؤولية أدبية يقتضيه واجب المروءة تجاه الضعفاء . والصدقة : مـــا تصدقت به على الفقراء وقد أشير اليها في القرآن الكريم . وقد تؤدي معنى (الزكاة).ووردت في معنى (المهر) أيضاً اي الصداق الذي يقدم الى المرأة[1] . ويظهر أن الجاهليين كانوا يستعملونها في معنى التصدق على المحتاج والسائل .

وأما الزكاة ، فهي ما يخرج من المال لتطهيره ، فهي تزكيـــة اختيارية للمال وطهارة له . وقد جعلها الاسلام فريضة على المسلم المتمكن بحسب الأنصبة المقررة في الشرع . وهي (زكوتو) Zakutu عند البابليين . وقد نص عليها في العهد القديم[2] . وهي أن يقدم أصحاب الزرع من أول ثمرهم الى الكاهن ليقدمـــه الى الرب ، وأن يسمح للفقراء بالتقاط ما يجدونه على الأرض مهملاً من بقايا الزرع، وأن يعطى الكهنـــة واليتامى والفقراء والغرباء والأرامل والمحتاجين عشر محاصيل الأرض . وقد كثرت الاشارة اليها في العهد الجديد[3] .

وإذا اعتددنا العشر الذي كان يقدمه العرب الجنوبيون الى المعبد مـــن حاصل عملهم ، لصرفه على المعبد وفي الأعمال الخيرية زكاة ، ففي استطاعتنا أن نقول إنها كانت مفروضة على المتمكن فرضاً ، أي على نحو ما نجده في الاسلام . غير ان من الجاهليين من كان يقدم زكاة المال من ماشية وإبل وزرع طوعاً واختياراً تقرباً الى الآلهة، يقدمها الى المعابد تخصيصاً باسم الأصنام . ومن هذا القبيل السائبة والحامي الوصيلة ونحو ذلك ، مما خصصه الجاهليون لآلهتهم تطوعاً ، وذلك تزكية لأموالهم وأملاً في نماء أموالهم الجديدة وحدوث البركة فيها .

السخرة :

وكان من حق الدولة وسادات الأرض والقبائل تسخير الناس في الأعمال التي

---

١ اللسان (صدق) ، (١٠/١٩٦ وما بعدها) .

٢ Reallexikon der Assyriologie, I, Band, I. Lieferung, S. 7.

٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣) .

يريدون القيام بها بلا عوض ولا أجر ولا دفع مقابل عن العمل الـذي يؤمرون القيام به . ونظام السخرة شائع معروف عند جميع الأمم . وقد كان معمولاً به عند بعض الشعوب الى عهد قريب. فكان من حق الحكومة إكراه أتباعها وأخذهم بالقوة وسوقهم للقيام بأداء اي عمل تريده . وفي ضمن ذلك المباني العامة والقصور. وبها تم انشاء معظم المباني الفخمة مثل الأهرام والمعابد ، حيث لا يكلف العمل بهذه الطريقة الحكومة كثيراً ، فالعمال مسخرون لا يدفع لهم شيء ، وعليهم أداء عملهم بسرعة وحمل أكثر ما يمكن حمله ، وإلا انهالت عليهم سياط المراقبين .

ويدخل في هذه السخرة ، السخرة العسكرية ، أي القبض عـلى أي شخص عند الحاجة وسوقه الى القتال ، وذلك من غير مقابل أيضاً . وقـد كابد سواد الناس منها عنتاً شديداً لفقرهم ولعدم وجود شيء عندهم تعتمد أسرهم عليه في معيشتها اذا غاب المعيل أو مات ، ولهـذا لم يحارب المحاربون إلا قسراً وخشية ورهبة ، وكانوا يهربون من هذه (السخرة) بالرغم مما قد يتعرض له الهارب من عقوبة شديدة قد تصل الى القتل .

واجبات الدولة :

واجبات الدولة كثيرة ، فإن عليها ان تحفظ الأمن في الداخل، وتحمي الحدود من مهاجمة الأعداء لها ، وتصد كل غزو يقع عليها ، وعليها ان تحقق العدالة، وتقتص من الجناة وتعاقب المجرمين ، وعليها أن تقيم الأبنية العامة وتفتح الطرق، الى غير ذلك من الواجبات التي نعرفها عن الغاية من نشوء الحكومات .

ونحن لا نستطيع ان نتحدث في الزمن الحاضر عن جهاز حفظ الأمن الداخلي، اي جهاز (الشرطة) الذي تناط به مهمة القبض على المجرمين وتعقب اللصوص والقتلة وما الى ذلك من شؤون لعدم ورود شيء عن هذا الموضوع في الكتابات .

ولكننا لا نستطيع نفي وجود علم للجاهليين الحضر بالشرطـة . فلا بد وان يكون لهم علم بأجهزة الأمن المخصصة بالقبض عـلى المجرمين وتعقب آثارهم ، أي الشرطة . وقد كان لهـم اتصال بالعراق وبيـلاد الشأم . ويظهر من كتب اللغة ان لفظة (الشرطي) و (شرطة) كانت معروفة بين الناس عنـد ظهور الاسلام . (وفي حديث ابن مسعـود : وتشرط شرطـة للموت لا يرجعون إلا

غالبين . وهم أول طائفة من الجيش تشهد الوقعة ، وقيل : بل صاحب الشرطة في حرب بعينها)[1] .

وقد كان لملوك الحيرة سجون يسجنون بها من يتجاسر عليهم ومن يخالف أمرهم ويعارضهم ويخرج على العرف . ومن سجونهم (الصنّين) . وفيه سجن (عدي بن زيد العبادي) . وقد ذكر انه كان موضعاً بظاهر الكوفة[2] . وذكر بعضهم انه بلد ، ذكره الشاعر بقوله :

ليتَ شعري ! متى تَخِبَّ بي النا قة بين العُذَيْب فالصِنّين

ولم يعين موضعه[3] . ويظهر انه لم يكن بعيداً عن الحيرة . ولعله كان حصناً حصيناً منعزلاً عن الناس ، به حرس كثيرون يحرسونه ، لهذا اتخذ سجناً ومحبساً .

ويظهر من شعر لعدي بن زيد العبادي ، ان ملوك الحيرة ، كانوا قد نظموا لهم حرساً يحرسونهم ويحرسون مؤسسات الحكومة المهمة مثل (السجون)، والأشخاص المسؤولون عن الأمن والأخبار ، ليرسلوا ما قد يحدث من أمور الى الملوك والحكام .

وقد عرف (العسس) عند الجاهليين أيضاً ، وهم المسؤولون عن حفظ الناس من أهل الريبة والكشف عنهم . والعَس : نفض الليل عن أهل الريبة . وكان الخليفة (عمر) يعس بالمدينة ، أي يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة[4] .

البريد :

وقد عرف (البريد) بين الجاهليين . ويذكر علماء اللغة أن اللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، وأن أصلها (بريده دم) ، اي محذوف الذنب ، لأن بغال البريد كانت محذوفة الأذناب كالعلامة لها ، ثم سُمي الرسول الذي يركبه

---

١ اللسان ٤/٣٣٠) ، (صادر) ، شرط) .
٢ الاغاني (٢/١١٥) .
٣ اللسان (صنن) ، (١٣/٢٥٠) .
٤ اللسان (٦/١٣٩) ، (عسس) ، تاج العروس (٤/١٩٠) ، (عس) .

بريداً ، والمسافة التي بين السكتين بريداً . والسكة موضع كان يسكنه (الفُيُوج) المرتبون من بيت أو قبة او رباط ، وكان يرتب في كل سكة بغال ، وبعد ما بين السكتين فرسخان ، وقيل أربعة [1] . فالبريد إذن بمعنى رسول،وموضع البريد، والشيء الـذي يرسل مع البريد ، أي الرسول حامل البريد ، ودابة البريـد . قال الشاعر :

إني أنصُّ العيس حتى كأنني عليها بأجواز الفلاة ، بريـدا [2]

ومن أعمال صاحب البريد إرسال الأخبار الى من عينهم في هذا المنصب، فهم موظفون مخبرون ، من أعمالهم اطلاع كبار الموظفين والأمراء والملوك على الأحوال العامة للمكان الذي يقع في ضمن عملهم واختصاصهم ، وأخبار الجهات المسؤولـة عن الأعمال المشبوهة التي قد تدبر ضد الدولة ، وعن تصرفات كبار الموظفين ، خشية انفرادهم في الحكم واعلانهم العصيان على الدولة .

ونسب (الجاحظ) الى (امرىء القيس) قوله :

ونادمت قيصر في ملكـه فأوجهني وركبت البريـدا
إذا ما ازدحمنا عـلى سكة سبقت الفرانق سبقاً بعيدا [3]

وقد نسب غيره الى (امرىء القيس) أيضاً قوله :

على كل مقصوص الذنابي معاودٍ بريد الشُرى بالليل ، من خيل بربرا [4]

ومعنى هذا ، إن صح بالطبع أن الشعر المذكور هو لامرىء القيس حقـاً ، أنه عرف البريد واستعمله ، وقد رأى خيل البريـد . وهي تقص ذنابها ليكون ذلك علامة على أنها من خيل البريد .

وقد أشير الى البريد في الحديث : جاء « لا تقصر الصلاة في أقل من أربعة

---

١ اللسان (٣/٨٦ وما بعدها) ، (صادر) ، (برد)
٢ اللسان (٣/٨٦) ، (صادر) ، (برد)
٣ الشعر والشعراء (٦٧) ، ديوان امرىء القيس (٢٦٢) ، كتاب البغـال ، مـن رسائل الجاحظ (٢/٢٧٥ ، ٢٩١) .
٤ الكامل ، للمبرد (١/٢٨٦) ، اللسان (٣/٨٦) ، (صادر) (برد)

برد » ، وهي ستة عشر فرسخاً ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف ذراع . وورد في الحديث أيضاً « لا أحبس بالعهد ولا أحبس البُرد » ، اي لا احبس الرسل الواردين عليّ [1] . وورد إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم . وعرفت الطرق التي يسير بها رسل البريد بـ (سكك البريد). كل سكة منها اثني عشر ميلاً [2] .

وقد أشير الى البريد في شعر ينسب الى (ورقة بن نوفل) ، يقال انه قاله حينما مات (عثمان بن الحويرث) عند (ابن جفنة الغساني) ، فاتهمت بنو أسد (ابن جفنة) بقتله [3] . وعرف (أبو قيس) بـ (راكب البريد) [4] .

وتحدث (الجاحظ) عن (البريد) في أيام الساسانيين ، فقال : « وكانت البُرد منظومة الى كسرى ، من أقصى بلاد اليمن الى بابه ، أيام وهرز ، وأيام قتل مسروق عظيم الحبشة » [5] . (وكذلك كانت برد كسرى الى الحيرة : الى النعمان والى آبائه . وكذلك كانت برده الى البحرين : الى المكعبر مرزبان الزارة ، والى مشكاب ، والى المنذر بن ساوى ، وكذلك كانت برده الى عمان ، والى الجلندي بن المستكبر. فكانت بادية العرب وحاضرتها مغمورتين ببرده ، إلا ما كان من ناحية الشأم ؛ فإن تلك الناحية من مملكة خثعم وغسان الروم ، إلا أيام غلبت فارس على الروم، ولذلك صرنا نرى النواويس بالشامات الى القسطنطينية .

وهل كانت برد كسرى الى وهرز ، وباذام ، وفيروز بن الديلمي والي اليمن، والى المكعبر مرزبان الزارة ، والى النعمان بالحيرة ، إلا البغال ؟ وهل وجدوا شيئاً لذلك أصلح منها) [6] .

فالبغال هي وسيلة نقل البريد في ذلك الوقت . تتوقف في محطات البريد لتبدل البغال التعبة ببغال أخرى ، وليبدل حملة البريد كذلك . وهكذا الى آخر محطة . فهي سكك تمتد مسافات طويلة. ولما كان من الصعب على البغل اختراق الصحارى

---

١ اللسان (٣/٨٦) ، (صادر) ، (برد) .
٢ اللسان (٣/٨٦) .
٣ ركب البريد مخاطرا عن نفسه ميت المظنة .للبريد المقصد نسب قريش (٢١٠) .
٤ نسب قريش (٢٦١)
٥ من رسائل الجاحظ ، كتاب البغال (٢/٢٩٠) .
٦ من رسائل الجاحظ ، كتاب البغال (٢/٢٩١ وما بعدها) .

ذات الرمال البعيدة الغور والتي تقل فيها المياه ، لزم أن تكون طريق البريد ممتدة في الأرضين التي يكثر وجود الماء فيها ، وتتوفر فيها الآبار ، وفي مواضع مأمونة قليلة الرمال .

ويظهر أن الجاهليين قد أخذوا نظم بريدهم من الفرس ، وأن ملوك الحيرة وغيرهم استخدموها في ادارتهم لدولتهم ، بدليل ما يذكره علماء اللغة من أن لفظة (البريد) كلمة فارسية عربت فصارت على هذا النحو . وأصلها (بريده دم)، أي محذوف الذنب ، لأن بغال البريد كانت محذوفة الأذناب كالعلامة لها، فأعربت وخففت ، ثم سُمّي الرسول الذي يركبه بريداً . والمسافة التي بين السكتين بريداً، والسكة موضع كان يسكنه الفيوج المرتبون من بيت أو قبة أو رباط ، وكان يرتب في كل سكة بغال ، وبعد ما بين السكتين فرسخان ، وقيل أربعة [1] ولعل ما ورد في شعر امرىء القيس من (على كل مقصوص الذنابي) ، إشارة الى تفسير كلمة (بريده دم) .

وقد ذكر علماء اللغة أن (الفيج) رسول السلطان على رجله ، فارسي معرب. وقيل هو الذي يسعى بالكتب . والجمع (فيوج) . وأشاروا الى ورودها في شعر لعدي بن زيد ، زعموا أنه قاله هو :

أم كيف جزتَ فيوجاً، حولهم حرسٌ ومريضاً ، بابه بالشك صُرّار ؟

قيل : الفيوج الذين يدخلون السجن ويخرجون يحرسون [2] .

ويظهر أنهم فرّقوا هنا بين (البريد) ، أي الرسول الراكب ، الذي ينقل البريد الى مسافات ، وبين (الفيج) الرسول الذي يسير على رجليه ، وهو لا يمكن بالطبع أن يقطع أميالاً كثيرة . فهو بريد محلي ، ينقل الأخبار الى مسافات غير بعيدة . وقد يكون مخبراً ، ينقل ما يحدث ويقع بسرعة الى المراجع العالية . فالفيوج ، لصوص الأخبار وبريد ماشٍ ينقل الكتب الى الجهات المختصة في الوقت نفسه . ويظهر من شعر (عدي) المذكور ، أن (الفيوج) كانوا يقفون للناس بالمرصاد ، يراقبون الحركات ويدرسون السكنات حولهم حرس منتبه ،

---

١ اللسان (٣/٨٦) ، (برد) ، تاج العروس (٢/٢٩٨) .
٢ اللسان (٢/٣٥٠) ، (فيج) .

يحرسونهم من احتمال محاولة أعداء الحكومة ايقاع أي أذى بهم ، أو الدخول أو الخروج الى الأماكن الحساسة التي كانوا يلازمونها ، ويسترقون أخبارها وأخبار من يدخل ويخرج منها .

وأما الأبنية العامة ،مثل المباني الحكومية ، فقد كانت الحكومات العربية الجنوبية تقوم مستقلة بانشائها ، وتنفق عليها أموالها ومن مواردها الخاصة . وتقوم بإنشائها بالاتفاق مع السلطات الدينية في أحيان أخرى . بأن تسهم تلك السلطات في تحمل نفقات البناء كلها أو جزء منها وقد يكون ذلك في مقابل نزول الحكومة عن بعض الحقوق الى المعبد . وقد تقوم الحكومة بإنشائها بالاتفاق مع كبار المتمولين،أصحاب الأرض والثراء .

وتقوم المدن والقبائل والحكومات بالاستدانة من أموال المعبد ومن الضرائب التي تدفع اليها ، للانفاق منها على إقامة الأبنية العامة والمشروعات الأخرى ، على أن تعاد تلك الديون الى المعبد . ولم ترد في الكتابات اشارات الى موقف المعابد من هذه الديون : أكانت تتقاضى أرباحاً عليها أي ربا ، أم كانت تعطيها قرضاً حسناً من غير فائض . ويعبر عن ضرائب المعبد التي تجبى من الناس بلفظة (كبودت) . وأما الدين ، فيعبر عنه بـ (دينم) (دين) كذلك ، كما جاء في هذه الجملة : (بكبودت دين عثتر)[1] ، أي (بالضرائب التي داينها وأقرضها الإلـه عثتر) .

حماية الحدود :

ومن واجبات الدولة تثبيت حدودها والمحافظة عليها من كل اعتداء ، وذلك بمراقبة الحدود ووضع حاميات عسكرية عليها ، من (مسالح) و (مناظر) وبناء قلاع في الثغور لحمايتها من المغيرين وصدهم . وتبنى هذه التحصينات في الخطوط الأمامية وعلى مبعدة من الأماكن الكبيرة المأهولة حتى يكون في وسعها صد المغيرين ، أو وقفهم حتى تأتي نجدات كبيرة من الجيوش لمحاربة الغزاة ، ويكون في وسع أهل القرى والمدن الهرب بأنفسهم وأموالهم الى مواضع آمنة .

---

١ Glaser 1150, Halevy 192, Rhodokanakis, Stud. Lex., II. S. 54.

و (المسالح) مواضع المخافة . والمسلحة كالثغر والمَرْقب يكون فيها أقوام يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غرة ، فإذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له . ومسلحة الجند خطاطيف لهم بين أيديهم ينفضون لهم الطريق ، ويتجسسون خبر العدو ويعلمون علمهم ، لئلا يهجم عليهم ، ولا يدعون واحداً من العدو يدخل بلادهم . وذكر انه كان أدنى مسالح فارس الى العرب (العُذيب)[1] . فالمسالح اذن ، هي الخطوط الأمامية من خطوط الدفاع عن بلد ما ، ونقاط الأمان فيها، ومحل جمع المعلومات عن تحركات ونيّات العدو . بها حاميات مقيمة وظيفتهـا الأولى الاستطلاع واخبار الجيش بقدوم عـدو ما ، ومشاغلته الى وصول القوات المدافعة الكبيرة .

و (المنظرة) (موضع الربيئة) وهـي المرقبة ، وتكون في مواضع مشرفة مثل رأس تل أو جبل يبنى عليه بناء يجعل فيه رقباء ينظرون العدو ويحرسونه ، ليتوقوا غدره وشره . فإذا أراد الغارة ، أرسلت (النظيرة) (النظورة) رسالة تحذير للتهيؤ لصد العدو . والظاهر ان اتخاذ المناظر في المواضع العالية المشرفة، هو الذي جعل علماء اللغة يفسرون المناظر بأنها أشراف الأرض لأنه ينظر منها[2] .

و (المراقب) و (المرقبة) الموضع المشرف ، يرتفع عليه الرقيب ، و(الرقيب) الحارس الحافظ ، و (رقيب القوم) : حارسهم ، وهو الذي يشرف على مرقبة ليحرسهم . وذكر علماء اللغة ان المرقبة هي المنظرة في رأس جبـل أو حصن[3] ، فهي في المعاني المتقدمة .

و (الثغر) الموضع الذي يكون حداً فاصلاً بين الحكومتين . وهو موضع المخافة من أطراف البلاد . و (الثغرة) : الثلمة ، وكل فرجة في جبل أو بطن أو طريق مسلوك[4] . ويظهر من هذا التعريف ان الثغور هي المواضع الخطيرة من الحدود ، لأنها تكون بمثابة الفرجة أو الثلمة فيها يتسنى للعدو منها التسلل بسهولة الى أرض عدوه ، ولهذا تجب حراستها والعناية بها ، بوضع حاميات بها لتشغل العدو ولتصده من الولوج اليها .

---

١ اللسان (٢/٤٨٧) ، (سلح) ، تاج العروس (٢/١٦٥) ، (سلـح) ، مقدمـة الصحاح (١/٣٧٥) ، محيط المحيط (١/٩٧٧ وما بعدها) .

٢ اللسان (ن/ظ/ر) ، (٥/٢١٨) .

٣ اللسان (ر/ق/ب) ، (١/٤٢٥) .

٤ اللسان (ت/غ/ر) ، (٤/١٠٣) .

وقد أقام الفرس والروم (مناظر) على حدودهم ، على أبعاد لا يكون ما بينها بعيداً حتى يكون في وسع حماة (المناظر) أن يتعاونوا ، ويقدموا العون للمنظرة التي تهدد بالخطر . وأقام الروم (طرقاً) ممهدة بين هذه المناظر ، ليسهل على القوات السير عليها بسرعة لنجدة المناظر وحماية الحدود .

وتلجأ الحكومات الى اقامة استحكامات أخرى لوقاية الحدود من مهاجمة عدو لها ، مثل اقامة الخنادق في بعض المواضع الخطيرة المهددة من الحدود لمنع المغيرين من عبورها ، كالذي يذكره أهل الأخبار عن (خندق سابور) الذي أقامه لمنع الأعراب من العبور بقصد الغزو ، ومثل اقامة بعض الحواجز والأسوار في الممرات والأودية ، وربايا في المواضع المشرفة ، لمراقبة حركات الأعداء وصدهم من المرور من هذه الأماكن .

ضرب النقود :

ذكرت فيما سلف أن ملوك العرب الجنوبيين ، ضربوا النقود ، وأن في المتاحف وفي الخزائن الخاصة ببعض الناس نقوداً تعود الى أولئك الملوك . أما بالنسبة الى الأماكن الأخرى مثل مكة أو يثرب ، فإننا لا نستطيع ان نتحدث بأي شيء عن ضرب النقود عندهم ، لعدم عثور العلماء على نقد ضرب في هذه الأماكن، ولعدم ورود إشارة الى وجود ذلك في موارد أهل الأخبار . والذي يستخلص من هذه الموارد ان أهل تلك المواضع ، كانوا يتعاملون بعملة الروم والفرس . وهي الدنانير والدراهم . كما سأتحدث عن ذلك في الموضع المناسب عندما سأتحدث عن الأحوال الاقتصادية . ولم أجد في روايات أهل الأخبار ما يشير الى تعامل أهل مكة أو يثرب بنقود حبشية او بنقود ضربت في العربية الجنوبية ، ولم أجد فيها ولا في كتب السير والتواريخ أن المسلمين ضربوا النقد في ايام الرسول .

ولم أسمع بضرب ملوك الحيرة او الغساسنة للنقود ، ولم يعثر الباحثون — كما أعلم — على نقد ضرب في عهود هؤلاء الملوك . والظاهر أنهم كانوا يتعاملون بالعملات الفارسية والرومية . وربما كان الفرس والروم قد منعوا أولئك الملوك من ضرب النقود ، لبواعث سياسية واقتصادية . ولكني لا أريد ان أجزم بأن (آل لخم) و (آل غسان) لم يضربوا النقد بتاتاً ، استناداً الى عدم وصول

نقد ضرب في أيامهم الينا حتى هذه الأيام ، أو الى عدم اشارة أهل الأخبار الى وجوده عندهم ، فقد يعثر في المستقبل على نقود تعود الى أيامهم ، هي الآن في مخابئها ، مدفونة تحت الأتربة . ثم إن أهل الأخبار لم يتحدثوا عن كل شيء ، حتى نتخذ سكوتهم عن ضرب ملوك الحيرة والغساسنة للنقود حجة على عدم وجود ضرب السكة عندهم .

والسكة : حديدة منقوشة كتب عليها يضرب عليها الدراهم[1] . والضرب الطبع ، يقال : ضرب الدرهم ، أي طبعه ، على سبيل المجاز . و « اضطرب ، بمعنى سأل ان يضرب له . وفي الحديث انه صلى الله عليه وسلم ، اضطرب خاتماً من حديد . أي سأل ان يضرب له ويصاغ »[2] . والنقد تمييز الدراهم واخراج الزيف منها[3] وأما الطبع فالسك . يقال طبع السكّاك الدرهم أي سكه[4] . وهناك مصطلحات أخرى لها صلة بالنقد ، ترد في كتب الحديث واللغة يظهر منها ، أنه قد كان للجاهليين ولأهل مكة بصورة خاصة وقوف على النقد ، وانهم كانوا يتعاملون بها ، ولهم علم بكيفية صنعها .

قواعد السلوك :

وللجاهليين آداب اصطلحوا عليها بالنسبة لتعاملهم مع الملوك وسادات القبائل ، فمن قواعدهم المقررة : ان الملوك لا تجز نواصيها[5] . وذلك لأن جزّ النواصي بالنسبة للعرب تعبير عن الازدراء بالشخص الذي جزّت ناصيته ، ولما كان للملوك حرمة ، فلا تجزّ نواصيهم ، ولا تجزّ نواصي سادات القبائل كذلك . وقد حدث ان جزّت نواصي بعض الملوك ، أو اخوتهم ، أو أبنائهم ، أو سادات القبائل ، إلا ان هذا العمل هو عمل شاذ ، لا يقدم عليه ، إلا لأن العداوة بين الملك وبين من قبضوا عليه او على أقربائه او سادات القبائل ، كانت عداوة شديدة عميقة ، بحيث تجاوزت حد العرف فخضعت لأحكام العواطف والأهواء .

---

١ تاج العروس (٧/١٤٣) ، (سكك) .
٢ تاج العروس (١ : ٣٤) ، (ضرب) .
٣ تاج العروس (٢/٥١٦) ، (نقد) .
٤ تاج العروس (٥/٤٣٨) ، (طبع) .
٥ نهاية الأرب (١٥/٤١٣) .

ومن قواعد آداب السلوك التي يجب على الملوك وسادات القبائل بل على كل انسان التأدب بها والتمسك بقواعدها ، تجنب الغدر[1] واذا كان الغدر عيباً بالنسبة للسوقة وللسواد ، فكم يكون الغدر معيباً بالنسبة للملوك ولسادات القبائل ولكرام الناس !

العلاقات الخارجية :

لم تصل الينـــا حتى الآن نصوص في أصول آداب السلوك بالنسبـــة للعلاقات الخارجية بين الدول،أي علاقات ما بين حكومات الدول العربية والدول الأجنبية . ولا نعرف لذلك طرق العرف السياسي الذي كان متبعاً عندهم في استقبال(الرسل) و (الوفود) الذين كانوا يفدون على قصور الملوك بأمر من ساداتهم ملوك الحكومات الأجنبيـــة من أعاجم وعرب . ولكننا نستطيـــع ان نقول قياساً على المألوف عند العرب ، انهم كانوا يبالغون في إكرامهم وفي ضيافتهم ، وفقاً للتقاليد العربيـــة ولظروفهم وامكانياتهم المحلية . وكانوا يستمعون بإنصات الى كلامهم ، ثم يردون عليهم رداً جميلاً ، إن حاز كلامهم موقعاً حسناً في نفوس الملوك، ورداً يناسب ما جاء في خطاب الرسل من تهديد أو وعد ووعيد ، إن استعملوا التهديد والوعيد في خطبهم . ومتى عادوا اكرموا إكراماً خاصاً ، ومنحوا ألطافاً وهدايا عـــلى الطريقة المتبعة في ذلك العهد ، وقد يحمّلون أولئك الرسل هدايا خاصة لمن أوفدهم اليهم ، يرفقونها بكتب جوابية في بعض الأحيان ، أو برسائل شفوية تبلغ للرسل ليبلغوها هم لساناً أو كتابة الى موفديهم .

و (الوفد) ، القوم القادمون للقاء العظماء ، وجماعة مختارة للتقـــدم في لقاء العظماء . ويقال وفده الأمير الى الأمير الذي فوقه ، أي ورد رسولاً[2] . وقـــد كان سادات القبائل يرسلون وفوداً عنهم الى الملوك أو الى سادات قبائل أخرى في مهام مختلفة ، مثل عقد حلف أو تفاوض أو تهديد بإعلان حرب أو لتهنئة أو لتعزية أو لبيعة وما شاكل ذلك من أمور . وقد أخذت الوفود تترى على الرسول بيثرب لما استحكم واشتد أمر الاسلام .

---

١ ابن الأثير (١/٣٢٠ وما بعدها) ، العقد الفريد (٣/٣٧٤) .
٢ اللسان (٣/٤٦٤ وما بعدها) ، (وفد) ، تاج العروس (٢/٥٣٨ وما بعدها) ، (وفد) .

وقد يكون الرسول المرسل الى بلاد العرب لا يعرف العربيـة ، فيكون من الضروري إرسال مترجم معه يتقن العربية ، ليقوم بأعمال الترجمة . وقد دوّنت الموارد اليونانية أسمـاء بعض الرسل الذيـن أرسلهم ملوك البيزنطيين الى اليمن أو الى الغساسنة أو المناذرة ، للقيام بمهمات خاصة ، ولاجراء مفاوضات في أمور تتعلق بالمصالح اليونانية العربية،وقد نصوا أيضاً على أسماء بعض المترجمين الذين رافقوهم الى ملوك العرب او الى سادات القبائل . ويظهر أنهم كانوا يختارونهم من رجال الدين النصارى الذين كانت لهم صلات وعلاقات وثيقة بالعرب ، ومنهم من كان من أصل عربي .

وكان من عادة سادات القبائل والملوك العرب ، انهم اذا أرادوا ارسال ممثل عنهم الى الحكام الأجانب ، لمفاوضاتهم في أمور تخصهـم ، اختـاروا من عرف بالذكاء والشيطنة من أتباعهم للقيام بهذه المهمات التي تحتاج الى ذكاء ولباقة وحسن تصرف . وهم في هذا الباب مثل غيرهم يراعون أن يكون رسولهم ممن يتقنون لغة من سيرسل اليه ، وان يكون من خواصهم ومن أتباعهـم ، حتى لا يبوح بأسرار مهمته لأعدائهم . وأما اذا تعذر هذا الشرط ، فكانوا يختارون مترجمين ثقات عرباً أو عجماً لمرافقة الرسول ، وللتكلم بلسانه ، ولنقل ما يقوله الأعاجم للرسول . ونجد في الموارد اليونانية ان عرب بـلاد الشأم ، أرسلوا رجال دين عنهم الى حكـام بلاد الشأم او الى القسطنطينيـة لمفاوضة الروم في المهمات التي كانوا يكلفون بها . ويظهر أنهم إنما لجأوا الى هؤلاء ، لأنهم كانوا يتقنون اليونانية ولأنهم نصارى ، والروم نصارى كذلك ، ولبعضهم صلات برجـال الكنيسة في القسطنطينية ، فيساعد الدين في تسهيل حل المشكلات .

وقد يذهب ملك عربي أو سيد قبيلة لزيارة الحكّام الأعاجم في مواضع حكمهم، أو في أماكن أخرى يتفقون عليها . فإذا لم يكن متقناً ذلك الملك أو سيد القبيلـة للغة الحاكم الذي سيزوره أخذ مترجماً معه ، ليكون لسانه الناطق باسمه واذنه التي تفسر له أقوال الحكّام والأجانب.ويظهر من الموارد اليونانية أن من الملوك الغساسنة من كان يتقن اليونانية ، فلما زار بعض منهم القسطنطينية ، تكلم بها وتباحث مع رجال الدين البيزنطيين في أمور اللاهوت بهذه اللغة .

والقاعدة العامة في العرف السياسي عند الجاهليين ، أن الموفد لا يهان ولا يعتدى عليه ولا يقتل . وكذلك كان هذا العرف سارياً على رسل الملوك الى سادات القبائل،

وعلى الوفود التي ترسلها القبائل الى الملوك او الرسل الذين يرسلهم سادات القبائل بعضهم الى بعض . وطالما نقرأ في كتب اهل الأخبار جملاً مثل : « لولا أنك رسول لقتلناك » ، تشير الى احترام العرب لرسالة الرسل والموفدين . وقد كان بعض الرسل يسيئون الأدب او لا يحسنون التصرف مع من أرسلوا اليه، فيثيرونهم، ومع ذلك ، فإن من يهاج منهم يحاول جهد إمكانه ضبط نفسه ، والتحكم في أعصابه ، حتى لا يتهور على الرسول ، فيتهم بسوء الأدب بإهانته ضيفاً، او يتهم بالغدر . وإذا كان بعضهم قد غدر بالرسل، فإن هذا الغدر لا يمثل العرف العام، وإنما هو غدر ، والغدر لؤم ، وقد يقع اللؤم من لئيم .

ولفظة (رسول) والجمع (رسل) هي من الألفاظ العربية القديمة المستعملة في عالم السياسة عند العرب . وردت في نص (أبرهة) ، الذي أشار فيه الى وفود أتت اليه من مأرب لتهنئته بمناسبة اتمامه سد (مأرب) ، فكان من بينهم رسل النجاشي وملك الروم وملك الفرس وملك الحيرة (المنذر) وملك الغساسنة (الحارث بن جبلة) و (أبو كرب بن جبلة)[1] . وفي هذا النص ملاحظة مهمة جداً جديرة بالعناية إذ أطلق هذا النص على مندوب النجاشي وملك الروم لفظة (محشكت) أما رسل الملوك العرب المذكورين فقد أطلق عليهم اللفظة العربية (رسل) . أي أنه استعمل ثلاثة مصطلحات سياسية في هذا النص لمفهوم واحد ، هو رسل أرسلوا من ساداتهم لحضور ذلك الاحتفال .

وقد يذهب الظن إلى ان النص إنما استعمل تلك المصطلحات الثلاثة ، لأنها مصطلحات للغات أولئك الموفدين ، فاستعمل لفظة (محشكت) لأن الحبش كانوا يطلقونها على معنى (رسول) في لغتهم وهذا كلام معقول ، ولكن ما باله أطلق تلك اللفظة على رسول ملك الروم ايضاً مع انها كلمة غريبة عن اليونانية لم يستعملها اليونان ، ولم يستعمل النص المصطلح الرسمي اليوناني المستعمل في اليونانية للسفير ؟ ثم ما بال النص يطلق لفظة (تنبلت) على رسول ملك الفرس ، واللفظة أيضاً غير فارسية وغير مستعملة عند الساسانيين ؟ أفلا يدل ذلك على أن النص لم يأخذ بالمصطلحات السياسية المقررة عند الحبش والروم والفرس للسفير ، وإنما اخذ بشيء

---

١ Glaser 618, CIH 541, Glaser, Zwei Inschriften, S. 390.
كتابي : تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/١٩٧) .

آخر ، هو اهم من ذلك بكثير ، لا صلة له بما ذهب هذا الظن اليه ، بل لسبب سياسي مهم ، هو ان مندوب ملك النجاشي في نظر ابرهة ، اهم وأقدم في المنزلة من اي مندوب آخر من المندوبين الذين وصلوا اليه ، لذلك قدّمه في الذكر على بقية المندوبين ، وأطلق عليه لفظه (محشكت) ، لأنها في معنى رسول ذي أهمية كبيرة ، وله ميزات على الرسل الآخرين ، فهو رسول ملك له صلة خاصة قوية به ، ثم ثنى بذكر رسول ملك الروم ، لأن الروم أصدقاء وحلفاء الحبش وأبرهة ولهم صلات قوية به ، ثم ان ملك الروم مثل ملك الحبشة وأبرهة على النصرانية، فبينه وبين الروم رابطة الاخوة بالدين ، فذكر لذلك مندوبهم بعد مندوب النجاشي واستعمل لفظة (محشكت) ، لما لهذه الكلمة من معنى خاص في معجم ألفاظ السياسة . وذكر مندوب ملك الفرس بعد مندوب ملك الروم ، لأن صلة الفرس بالحبش ، لم تكن على درجة صلة الروم بهم ، ثم انهم يختلفون عنهم في الدين ويعارضونهم في السياسة ، لذلك أخره عن مندوب الروم ، وأطلق عليه لفظة تشير الى أنها دون لفظة (محشكت) في الدرجة والتقدير . ولكنها فوق لفظة (رسل) (رسول) (رسل) في الأهمية والدرجة والمكانة على كل حال . لأن ملوك الفرس أكبر شأناً في عالم السياسة من المنذر ومن الحارث ومن أبي كرب لذلك استعمل هذه اللفظة لرسول ملك فارس واستعمل كلمة (رسل) لمندوبي الملوك العرب .

وفي العربية لفظة أخرى تؤدي معنى (رسول) ، هي لفظة (سفير) . ويذكر علماء العربية أن السفير : الرسول والمصلح بين القوم[1] . وكان أهل مكة إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب أو خصومة ، بعثوا سفيراً . وكانت السفارة في (بني عديّ)[2] .

ويقال للرسول (اسى) في العربيات الجنوبية ، تعبيراً عن رسول يرسل بمهمة خاصة[3] .

ولجلوس رجال الوفود عند الملوك وسادات القبائل اهمية كبيرة عند العرب ، فالمقدم على الناس يكون أيمن الملك او ايمن سيد القبيلة ، وهكذا . وجلوسه هذا

---

١ اللسان (٤/ ٣٧٠) ، (سفر) .
٢ العقد الفريد (٣/ ٣١٣ وما بعدها) .
٣ South Arabian Inscriptions, p. 427.

على هذا النحو وعلى هذا العرف، هو علامة تفضيل له على غيره . ويقوم الحجاب او من اليه امر استقبال الوفود بتطبيق هـذه القاعدة مراعاة شديدة ، وقد يتولى الملك ذلك بنفسه ، فيطلب من كبير القوم او ممن يريد تشريفه وتفضيله على غيره الجلوس إلى جانبه الأيمن ، ويفتخر عندئذ من ناداه الملك بالجلوس الى أيمنه فخراً شديداً ، ويتباهى بهذا التقديم على غيره ، وتعتز قبيلته به ، فتقدم الرجال عند الملوك والسادات من امارات الشرف والعز . وقد يخلق مثل هـذا التقديم للملك مشكلات خطيرة ، إذ يزعل الباقون من هذا التفضيل ، خاصة إذا كانت بينهم وبين من قدم عليهم عداوة أو منافسة ، فيرون في هذا التقديم ازدراء بهم وإهانة متعمدة قد وجهت اليهم . وقد يتركون مجلس الملك ، ويقع مـا يقع بين الملك وبين المتزعجين ، أو بين من قدم ومن قدم عليهم .

ومن آيات تكريم رئيس الوفد ، ان الملك كان إذا وضع الشراب، بدأ بالشرب أولاً ، فإذا انتهى اسقى من كأسه من يراه أفضل القوم، وهو رئيسهم ، او انه يأمر السقاة او يشير اليهم اشارة واضحة او خفية بتقديم من يراه أهلاً للتقديم ، ومعنى هذا انه أفضل الوفد . وقد أثار هذا التقديم مشكلات خطيرة للوفود المتنافسة التي كانت تفد على الملوك ، وإلى الملوك أنفسهم ، ولا سيما الملوك الذين تحكمت اعصابهم بهم ، مثل (عمرو بن هند) و (النعمان بن المنذر) . وقد قتـل (عمرو بن هند) ، كما سبق ان تحدثت عن ذلك بسبب تهوره وانسياقه لعواطفه إذ دعا الشاعر (عمرو بن هند) وامه لزيارته ، وكان ينوي الاساءة اليه ، لأنه كان فخوراً متعززاً بنفسه ، فأمر الملك أمه بأن تكلف أم الشاعر بخدمتها ، وهي من أعز النساء في قومها ولأنها من بيت رئاسة ، فلما صرخت (واذلاه) ، وسمع ابنها الصرخة ، ثار على الملك فقتله .

وكان من عادة ملوك الحيرة ، انهم يتخذون للوفود عند انصرافهم مجلساً : يطعمون فيه ضيوفهم ، ويسقونهم الخمور ، وقد تغنى فيه القيـان[1] ، ثم يعطي الملوك الخلع والهدايا لأعضاء الوفود ، وقد يخلعون عليهم الخلع الملكية ، يعطونها لخاصة من حضر دلالة على زيادة تقديرهم لهم . ويتباهى من يناله هـذا الحظ السعيد بتلك الملابس ويحتفظ بها للاعتزاز .

---

١ العمدة (٢/٢٢٠)

وقد جرت العادة بإنزال الوفود في دار الضيافـــة ، ليعتنى بالضيوف الوافدين وليتالوا حريتهم وراحتهم بها . ويظهر ان من عادة العرب إذ ذاك ان الوفد منهم إذا انتهت مهمته وقرر الرجوع إلى اهله ، عملت له وليمة في آخر يومه،وقدمت له هدية ، وتسلم له رسالة ان احتيج إلى ذلك . وقد اتبعت هذه العادة في يثرب حينما أخذت الوفود تترى على الرسول لمبايعته بالاسلام . فقد اتخذ الرسول داراً خاصة بيثرب لتكون داراً تنزل بها الوفود ، عرفت بـ (دار رملة بنت الحارث) امرأة من بني النجّار . ويظهر انها كانت داراً واسعـة ، بدليل ما ورد من ان الرسول حبس بها (بنو قريظة) لما نزلوا إلى حكمه[1] . ولا يمكن إنزال عشرات من الناس بها لو لم تكن داراً واسعة كبيرة . كما كان الرسول يأمر المكلف بأمر الوفود بإعطائهم جوائز يعينها له،فيعطى مقدار ما يأمره بـه الرسول ، وما يكتبه لهم من اقطاع[2] .

صكوك المسافرين :

هي جواز السفر في اصطلاح هذا اليوم . كان على المسافر حمله معه لئلا يتعرض به أحد[3] . يمنحها الملوك وسادات القبائل،وتختم بختمها ، فلا يتحرش أحد بحاملها. ويؤمن على سلامته . وإذا اعتدى عليه معتد طالب صاحب الجواز بحقه من المعتدي عليه.وتعطى مثل هذه الصكوك للوفود وللنابهين من الناس من أصحاب المكانة والجاه.

وقد يكون الجواز شيئاً غير مكتوب . فقد كان (جواز) أهل مكة ومن كان في حلفهم لحاء شجر الحرم ، يعقدونه في أعناقهم او في أعناق ابلهم ، ليكـــون علامة على أنهم من (قريش) او من قوم لهم عهد وعقد معهم فلا يتجاسر أحد على التحرش بهم . للعهود المعقودة بين قريش وبين سادات القبائل ، بعدم تحرش احد برجل من اهل مكة او بمن يكون في جوارهم ومن له عقد معهم .

وقد يكون الجواز شيئاً بسيطاً : عصا أو سهم أو اي شيء آخر . يعطيـــه شخص شخصاً آخر ليكون له جواز أمن وسلام ، إذا ابرزه لم يتحرش أحد به. ويكون محرماً ، اي مسالماً لا يجوز لأحد الاعتداء عليه ، لأنه في حرمة صاحب

---

١ نهاية الأرب (١٧/ ١٩٠ وما بعدها) ، (١٨/ ٩١ وما بعدها) .
٢ نهاية الأرب (١٨/ ٩١) .
٣ تاج العروس (٤/ ١٩ ، (جاز) .

الجواز ، ولا تهتك لصاحبه حرمة . ولما جاء الاسلام ، جعل المسلمين محرماً . جاء في الحديث : « كل مسلم عن مسلم محرم » ، و « كل مسلم عن مسلم محرم ، اخوان نصيران » . معناه ان المسلم ممسك عن مال المسلم وعرضه ودمه . وانه معتصم بالاسلام ممتنع بحرمته ممن أراده وأراد ماله[1] . فكل واحد هو في الاسلام آمن .

ومن عادة ملوك الحيرة إعطاء (القطوط) للناس ، وهي صكوك الجوائز ، اي كتب تخرج للناس فيها جوائز الملك ، فيقبضون مقدار ما كتب فيها . وقد ذكرها الأعشى في قوله :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغبطته يعطي (القطوطَ) ويأفق

وذكر ان القِطّ : الصكّ بالجائزة والكتاب ، وقيل : هو كتاب المحاسبة، وفي ذلك يقول أُميّة بن ابي الصلت :

قوم لهم ساحة العِرا ق جميعاً ، والقِطّ والقلم[2]

---

١ اللسان (١٢/١٢٤ وما بعدها) ، (حرم) .

٢ اللسان (٧/٣٨٢) ، (قطط) ، (أراد بالقطوط : كتب الجوائز) ، اللسان (١٠/٦) ، (أفق) .